



رحلات متعرّجة في بلاد الإبل

تأليف: صموئيل م. زويمر

ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

رحلات متعرّجة
في بلاد الإبل

روّاد المشرق العربي

رحلات متعرّجة في بلاد الإبل

في اليَمَن وعُمان والبحرين وساحل الإمارات العربيّة
في أيّام الشيخ زايد بن خليفة الكبير
بين عامي 1891-1894 م وعام 1901 م

للرحّالة المبشّر الأميركي

صموئيل م. زويمر

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

سلسلة
روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ

الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

صموئيل مارينوس زويمَر (1867 - 1952م) Samuel Marinus Zwemer مبشّر پروتستانتي أميركي من أصل هولندي، ورحّالة وباحث، ينتمي إلى أسرة يهوديّة دخلت في المسيحيّة ضمن سلك الكنيسة الإصلاحيّة. أُطلق عليه لقب: «الرّسول إلى الإسلام» Apostle to Islam، عُيّن مبشّراً في البَصرة والبحرين ومَسْقط وأماكن أخرى من الجزيرة بين 1891-1905 م، ففشلت مهمته فشلاً ذريعاً ولم يفلح في تنصير أحد من العرب، كما هو متوقع.

يذكّرنا في ذلك برحلات المبشّر الپروتستانتي البريطاني آرتشيبولد فوردَر Archibald Forder الذي نشرنا كتابه مؤخراً بعنوان: «مغامرات بين العرب»، ويتضمّن رحلاته في الأردن وفلسطين بين 1891-1899 م ورحلته إلى جوف السّرحان عام 1900-1901 م. وغنيّ عن القول إنّ الهيئات التبشيريّة الپروتستانتيّة في كلّ من إنكلترا وسكوتلندا وأميركا أبدت في القرن التاسع عشر اهتماماً منقطع النظير بأقطار المشرق، وأسّست لريادتها وبحثها مؤسّسات كبيرة ذات ميزانيّات جسيمة، وكان لديها تركيز على مدخلين اثنين: التعليم، والطبابة. وعلى رأس ذلك كانت الكليّة الپروتستانتيّة السّوريّة Syrian Protestant College (الجامعة الأميركيّة في بيروت اليوم).

وكذلك فالباب الذي حاول منه المبشّرون الإنكليز والأميركيّون دخول مجتمعات جزيرة العرب كان تحديداً إقامة المستوصفات والمشافي، وأكبر دليل على هذا مشفى الإرساليّة الأميركيّة في البَصرة (1891)، والبحرين التي كان زويمر نفسه أحد مؤسّسيها (1893)، ومَسقط (1913)، والكويت (1913). وكذلك عندما وضع الإنكليز موطئ قدم لهم رسميّاً في مَسقط، قاموا هم أيضاً باستخدام الطبابة لصالحهم، فبعد المعاهدة التي أُبرمت بين ضابط المستعمرات الإنكليزي الكاپتن جون مالكوم John Malcolm وحاكم عُمان سلطان بن أحمد في عام 1800 م، تولّى طبيب جرّاح مسؤوليّة أوّل بعثة ديپلوماسيّة إلى مَسقط، وكان أيضاً الطبيب الخاصّ للإمام.

ولهذا، نجد أنّ زويمر لمّا نوى في مطلع شبابه الدّخول في سلك التبشير، تلقّى في نيويورك تدريبات طبيّة وصيدلانيّة، ومارس المعالجة قبل تخرّجه من المعهد اللاهوتي في عام 1890. كانت نيّته منذ البداية البحث عن بلدان جديدة لم تطأها أقدام المبشّرين من قبل، فاختار لذلك جزيرة العرب. وفي شهر

يونيو من العام ذاته 1890 انطلق إلى أوروپا في طريقه إلى الجزيرة، فزار الإرساليّة المشيخيّة السّكوتلنديّة Scottish Presbyterian Mission التي كانت الهيئة الوحيدة التي عملت في الجزيرة. ومنها توجّه إلى بيروت حيث شرع في تعلّم العربيّة، فالقاهرة ومنها إلى صنعاء في يوليو من عام 1891.

كان يرافق زويمر في هذه الرّحلات زميله جايمس كانتين James Cantine، وابتدأت الرّحلة بالسّفينة من عَدَن إلى الحُدَيدة ومنها إلى صنعاء بالبرّ على البغال في رحلة استمرّت ستة أيام. وفي هذه الأثناء، قام كانتين برحلة إلى مَسْقط ومنها إلى البحرين، ثم زار بوشهر وبعدها البَصرة، وسرعان ما جُوبه الرّجلان بمعارضة الحكومة التركيّة لنشاطاتهما التّبشيريّة، ومُنعا من بيع الكتب. وفي عام 1892 زار جزيرة البحرين، ثم انضمّ إليه شقيقه پيتر زويمر وتمّ تأسيس مشفى مايسون التذكاري Mason Memorial الشهير هناك، وما زال قائماً إلى يومنا الحاضر.

أُغرم صموئيل بممرّضة أرسلت للعمل في مشفى الإرساليّة في البحرين، وكانت فتاة أوستراليّة فاتنة اسمها إيمي إليزابث ويلكس Amy E. Wilkes وفي عام 1896 تزوّجا في القنصليّة البريطانيّة ببغداد. كان ذلك بعد خمسة أعوام من بداية بعثة زويمر في جزيرة العرب (1891)، ولذا فإنّ رحلاته الأولى في هذا الكتاب لم تكن برفقة زوجته. وهكذا أقاما معاً في البحرين حيث عملت معه في المشفى ورافقته في رحلاته، ثم عادا أدراجهما إلى أميركا عام 1905، وكانت وفاة إيمي في عام 1939 وبعدها صموئيل في 1952.

لبث زويمَر عضواً بإرساليّة جزيرة العرب (1890-1913) وخدم في مصر بين 1913-1929 كما قام أيضاً برحلات في آسيا الوسطى، وانتُخب زميلاً في الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة بلندن، وعيّن عام 1929 أستاذاً لتاريخ الأديان في معهد پرنستون اللاهوتي Princeton Theological Seminary فبقي يدرّس فيه حتى عام 1951. كانت له نشرة دوريّة فصليّة بعنوان: The Moslem World (صدرت ما بين 1911-1947) ونشر 45 كتاباً، أهمّها عن جزيرة العرب: Arabia: The Cradle of Islam (صدر 1900)، وكتابه Topsy Turvy Land (صدر 1902) بالاشتراك مع زوجته إيمي، وكتابه الآخر: Zigzag Journeys in the Camel Country (صدر 1911)، وهو هذا الذي نقدّمه للقارئ العربي اليوم.

زيارات زويمر الثلاث لأبوظبي: في أثناء رحلته هذه التي قادته من اليَمَن إلى عُمان فالبحرين (حيث تمّ تأسيس الإرساليّة والمستشفى الأميركي)، اجتاز صموئيل مارينوس زويمَر بأبوظبي قادماً من البحرين في يوم 14 فبراير 1891، فوصفها وذكر بكل الإعجاب والاحترام حاكمها الشيخ زايد بن خليفة بن شخبوط بن ذياب بن عيسى بن نهيان بن فَلاح بن ياس، الذي يُعرف باسم «الشيخ زايد الكبير»، وقد حكم خلال الفترة بين 1855-1909 م، وكانت وفاته

في 9 من شهر مايو عام 1909 م، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وضاعف في حسناته، وبارك في ذريّته الصّالحة الطيّبة.

ثمّ عاود زويمَر في شهر مايو من العام ذاته 1891 زيارة أبوظبي والشيخ زايد بن خليفة آل نهيان للمرّة الثانية، قادماً بالبحر من البحرين ثم توجّه على متن بعير إلى ساحل عُمان الشرقي ثمّ مَسقط، وقد اجتاز بالبرّ الدّاخلي لأبوظبي بالظفرة إلى العين إلى واحة البريمي ثم السّاحل، ويذكر أنها كانت من أطول رحلاته البريّة على الإطلاق، حيث اجتاز مسافة 300 ميل. وهنا يكرّر إعجابه بحاكم أبوظبي وسكّانها فيقول: «وجدنا العرب هناك يحبّون الضيف كثيراً وسارعوا فوراً لاستقبالنا».

أمّا رحلته الثالثة إلى أبوظبي فكانت في عام 1902، لكنه لا يذكر وقائعها في هذا الكتاب، بل في مقالة قيّمة له يصف فيها رحلاته الثلاث إلى ساحل الصّلح (الإمارات العربيّة المتحدة حالاً) وعُمان، وفيها أقدم صور معروفة لقصر الحصن في أبوظبي (مؤرّخة 1902) أي قبل صور الرحّالة الألماني هِرمان بورخارت بسنتين، الذي نشرنا صوره ووقائع رحلته عبر الخليج مترجمة عن كتاب Unterwegs am Golf. وقد صدرت المقالة المذكورة في المجلة الجغرافيّة التابعة للجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة بلندن بعنوان: Three Journeys in Northern Oman, The Geographical Journal, vol. XIX, No. 1 (1902).

فيسرّنا اليوم أن نقدّم ترجمة كتابه المذكور أعلاه: «رحلات متعرّجة في بلاد الإبل»، وفيه وصف سريع لرحلتيه الأوليين إلى أبوظبي. لكنني أنتظر حالياً الحصول على مقالته النّادرة من مكتبة المتحف البريطاني لكي أترجمها. وسأقوم إن شاء الله تعالى بنشر المقالة ضمن هذه السّلسلة الحاضرة، استكمالاً لجمع المصادر الأصليّة عن تاريخ مدينة أبوظبي العريقة في أيّام المغفور له الشيخ زايد بن خليفة الكبير، عنوان وفاء وولاء لتاريخ هذا الرجل وعهده الزاهر.

خاصة أننا في هذا العام 2011 نصادف ذكرى مرور 250 عاماً على تأسيس مدينة أبوظبي. فحسب المرويات التاريخيّة، كانت بداية انتجاع بني ياس من واحة ليوا صيفاً تجاه الجزيرة التي أضحت مدينة أبوظبي في عام 1761 م (ويقال إنّ العثور على نبع الماء بدلالة الظبي كان عام 1769 م)، وبذلك يمكن لنا اعتبار أنّ مبتدأ تاريخ هذه المدينة العريقة يعود إلى عام 1761. أمّا تاريخها القديم فتعود جذوره إلى عصر البرونز في الألف الرابع ق.م. وتاريخ اتخاذها عاصمة لآل البوفلاح شيوخ بني ياس يعود إلى عام 1793 في أيّام الشيخ شخبوط بن ذياب بن عيسى آل نهيان، جدّ الشيخ زايد الكبير رحمه الله.

إذن كما أسلفنا، دامت بعثة زويمَر التبشيريّة ورحلاته في اليَمَن وعُمان والبحرين وسِاحل المشيخات المتصالحة 14 عاماً ما بين 1891-1905، بدأها في

اليَمَن قادماَ من ميناء الحُدَيدة. ويروي في نصّه أدناه أنه زار صنعاء ومأرب مرتين: الأولى بمطلع رحلته المذكورة في عام 1891 قادماً من ميناء الحُدَيدة، والثانية في عام 1893-1894 قادماً من عَدَن.

وعلى اعتباره عاد لزيارة أبوظبي تحديداً في زياتين متتاليتين عامي 1901-1902، فهذا يدلّنا على أنّ ما دفعه إلى ذلك كان إعجابه بسجايا الشيخ زايد بن خليفة وكرمه الكبير وتكريمه للضيوف، فخصّه وحده بزيارة ثانية وثالثة، ولا نظنّه زار أيّاً من بلدان منطقة الخليج العربي ثلاث مرات في إقامته بالبحرين التي امتدّت حتى عام 1905 سوى أبوظبي.

مؤلفاته الأخرى: ألّف زويمَر كثيراً من الكتب والكتيّبات، سنذكر أهمّها أدناه في قائمة منفصلة، أمّا كتابه الذي يذكره كثيراً ويتغنّى به: Topsy Turvy Land «بلاد رأساً على عقب» فقد حصلتُ على نسخة منه، لكنني وجدته غير صالح للنشر في سلسلتنا الحاضرة، لأنه لا يعدو كونه محاولة هزيلة غير علميّة لنقد تراث المشرق والعروبة والإسلام، لإظهار أنّ حضارة الغرب هي الأصل، حتى أنه ينتقد اللغة العربيّة بكونها شاذة لأنها تُكتب من اليمين لليسار..

يا للجهل، فلو كان زويمَر يفقه أدنى قواعد الفيلولوجيا والإپيغرافيا، لكان علم أن أصل الكتابة الأولى قد جاءت من الشرق، لا بل إنّ سواحل الخليج العربي، وسكان حضاراته القديمة (دِلمون وأم النّار والجرهاء) الذين هاجر بعضهم إلى سواحل البحر المتوسط في الشام، أبدع أحفادهم الكتابة المقطعيّة الأولى في مدينة جبيل بساحل لبنان، التي أخطّ فيها هذه الكلمات، وكانت تُكتب من اليمين إلى اليسار، وعنها اقتُبست الحروف اليونانيّة واللاتينيّة وجميع حروف أوروپا والعالم الجديد!

لقاؤه في البَصرة بالرحّالة وليَمسون: التقينا منذ مدّة قريبة على صفحات «روّاد المشرق العربي» في كتاب: «رحلات المغامر العربي» بالرّحّالة البريطاني وليَم وليَمسون، الذي عاش في بلدان الخليج ثم في البَصرة، وأسلم وحَسُن إسلامه وتلقب باسم: الحاج عبد الله فضل المسلماني. يروي مؤلف سيرته وليَم إدوارد ستانتون هوپ: «بُعيد وصول وليَمسون البصرة، تمت دعوته لحضور احتفال تركي فكان بالنسبة له مناسبة محرجة. في ذلك الاحتفال كان السيّد أحمد النقيب، وهو المواطن صاحب المكانة، يحتل صدارة الحفل، وبالإضافة إلى المسلمين من السنّة والشيعة، فقد ضم الجمع أيضاً يهوداً وصابئة واثنين من المبشّرين الأميركيين البروتستانت. ومن بين الحاضرين أيضاً مبشّر آخر يدعى زويمَر Zwemer كان قد أمضى سنوات في الشرق الأوسط وأجرى دراسة عن كتب حول الدّيانة الإسلامية، بالإضافة إلى العديد من الكتابات بهدف واضح هو البحث عن تناقضات في هذه الدّيانة بغرض هدمها من أركانها.

«حضرت أيضاً عدّة مجموعات من الناس من بلدة شَيبة والقرى المحيطة لتقديم فروض الطاعة والاحترام للسيد أحمد النقيب، ومن ثم جرى حديث ممتع مع تناول الشراب المثلج إلى أن تحدث زويمَر فجأة بصوت عالٍ إلى وليَمسون أثناء هدأة الحوار مخاطباً إياه بالعربية وباسمه الإسلامي الجديد: «يا عبد الله، لماذا أصبحت مسلماً وتركت المسيحيّة دين آبائك وأجدادك؟».

«اتجهت كل الأنظار إلى وليَمسون، الذي قال بعد صمت هنيهة: «الإجابة على سؤالك هذا، يا زويمر، يقودنا إلى جدال طويل. ولن يكون هذا بالأمر الحسن بين أناس ينتمون لمختلف الطوائف والملل، في مثل هذا المحفل الاجتماعي». فما كان من زويمر إلا أن ابتسم وأجاب على الفور: «أتوقع، يا عبد الله، أنه لن يكون بمقدورك تقديم جواب مقنع. وما ذلك منك إلا اختلاق للأعذار». وقبل أن يقول أيّ منهما شيئاً آخر، أدلى النقيب بدلوه في الموضوع معبّراً عن موافقته لموقف وليَمسون. وأضاف قائلاً: «عبد الله حسب علمنا يملك حُسن الجواب، ولو كرّرت سؤالك له بعد الاحتفال، يا زويمر، سوف يجيبك عليه وعلى أي سؤال آخر تودّ طرحه عليه».

«وهكذا، قبل أن يتمكن وليَمسون من القراءة بالعربية، أُقحم في دفاع عن العقيدة ضد خصم لا يملك فقط المقدرة على الاقتباس من القرآن بنصّه الأصلي، بل أكثر من ذلك الاقتباس من كتب الحديث الستة؛ وهي التي تلقاها معظم المسلمين بالقبول، وتضمّ عدداً لا محدوداً من أحاديث وأقوال النبي محمّد عليه الصّلاة والسلام، دون شك في صحة نسبتها إليه، والتي ترجع معظم المعتقدات الإسلامية إليها. لكن وليَمسون، لوثوقه من سيف الحق الذي بيده، أبدى في نهاية حفل الاستقبال دفاعاً مشرفاً ضد خصم عنيد. لقد وقف بحزم بجانب كل الحاضرين في اختيار طريقهم لله، متجنباً كل ما قد يسيء إلى مشاعر اليهود والپروتستانت الحاضرين. صحيح أن أحداً من الحاضرين لم يغيّر قناعاته بطريقة أو أخرى بعد تلك المناظرة الدينية، ولكن في المقابل لم يشكّ أحد في إخلاص وليَمسون الذي حاز على كل الدّعم المعنوي لغالبية الحاضرين».

هذا ما ذكره ستانتون هوپ، والنصّ الكامل في كتابه «رحلات المغامر العربي» ضمن سلسلتنا هذه.

* * *

أخيراً، نُشر عن زويمر بالعربية مؤخراً كتاب للباحث البحراني حَمَد إبراهيم عبد الله يحمل عنوان: «صموئيل زويمر، لقاء المسيحية بالإسلام 1867-1952 م»، يستعرض فيه المؤلف بالتفصيل أبرز محطات حياة هذا القس المبشّر الأميركي، الذي اتخذ من البحرين محطةً له للتبشير وأسّس فيها مقراً تابعاً للإرسالية العربية. يذكر الأستاذ حَمَد: «ارتبط اسم صموئيل زويمر بتاريخ

البحرين، فقد خلّف وراءه شواهد لا تزال قائمةً إلى يومنا هذا، وعلى رأسها مستشفى الإرسالية الذي كان يُعرف حينها بمستشفى ميسون التذكاري. ومن منا عند حديثه عن التبشير في الخليج العربي لا يمرّ حديثه دون ذكرٍ لصموئيل زويمر؟ فهو الذي يُرى اليوم من قبل المبشرين على أنه الأب الروحي والقدوة لحركات التبشير في العالم الإسلامي حتى لُقب بـ «أمير المبشّرين» و«الرّسول إلى الإسلام». ولذلك وقع اختياري لتأريخ هذه الشخصية المهمة التي كثر الجدل حولها لتبيان أدق تفاصيلها والتي ظلت غير مُمحّصة إلى يومنا، بهدف أن يغدو هذا الكتاب مرجعاً رئيسياً للباحثين والمُهتمين بتاريخ البحرين وحركات التنصير العالمية».

* * *

وختاماً، أذكّر القارئ الكريم بأننا سنلتقي بصموئل زويمر مرّة ثانية على أديم سلسلة «روّاد المشرق العربي»، حينما ننشر وقائع رحلته الثالثة إلى أبوظبي في عهد المغفور له الشيخ زايد بن خليفة الكبير عام 1902، التي التقط زويمر في أثناءها أقدم الصّور المعروفة لقلعة الحصن في أبوظبي، قبل عامين من زيارة الألماني هِرمان بورخارت.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 23 أكتوبر 2011

د. أحمد إيبش

أهم مؤلفات صموئيل زويمر

1900 Arabia: The Cradle of Islam. New York: Fleming H. Revell. Reprinted New York: Gordon Press, 1980.

1902 Raymond Lull: First Missionary to the Moslems. New York: Funk and Wagnalls.

1905 The Moslem Doctrine of God. New York: American Tract Society. Reprinted Fort Washington, PA.: WEC Press, 1984.

1906 The Mohammedan World Today. New York: Young Peoples Missionary Movement.

1907 Islam, a Challenge to Faith. New York: Student Volunteer Movement.

1911 The Moslem World. 37 vols. (1911- 47), a quarterly scholarly periodical edited by Samuel M. Zwemer.

1912 The Moslem Christ. London: Oliphant, Anderson & Ferrier. Reprinted Fort Washington, PA.: WEC Press, 1984.

1915 Mohammed or Christ. London: Seeley Service and Company. Childhood in the Moslem World. New York: Fleming H. Revell.

1916 The Disintegration of Islam. New York: Fleming H. Revell.

1921 The Influence of Animism on Islam. New York: Macmillan. A Moslem Seeker after God (Life of Al-Ghazali). New York: Fleming H. Revell.

1923 The Law of Apostasy in Islam. London: Marshall Brothers.

1928 The Glory of the Cross. London: Marshall Brothers. Reprinted Grand Rapids, Mich.: Baker, 1982.

1929 Across the World of Islam. New York: Fleming H. Revell.

1934 Thinking Missions with Christ. Grand Rapids, Mich.: Zondervan.

1935 The Origin of Religion. Nashville, Tenn.: Cokesbury Press.

1939 Studies in Popular Islam. New York: Macmillan. Dynamic Christianity and the World Today. London: Inter-Varsity Fellowship of Evangelical Unions.

1940 The Art of Listening to heaven. Grand Rapids, Mich.: Zondervan.

1941 The Cross above the Crescent. Grand Rapids, Mich.: Zondervan.

1943 Into All the World. Grand Rapids, Mich.: Zondervan.

1944 Evangelism Today. New York: Fleming H. Revell.

Heirs of the Prophets. Chicago: Moody Press. A Factual Survey of the Moslem World. 1946 .New York: Fleming H. Revell

.The Glory of the Empty Tomb. New York: Fleming H. Revell 1947

.How Rich the Harvest. New York: Fleming H. Revell 1948

.Sons of Adam. Grand Rapids, Mich.: Baker 1951

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والأسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر ثلاث نقاط: 1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دي) بالمطلق. هذا في الأسماء الفرنسيّة، أمّا في الأسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho chica.، وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرف العلة e أو i كقولك: macinare ciao, Cesare,. ويماثله في التركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء الإنكليزيّة: چِستر، چِڤرون، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچِة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż.

3 - أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، ويعرّبون لوحات الطرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهو ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن

ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كمبدئهم في تعريب أسماء: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمه بثلاث نقاط: ڠ تمييزاً له عن الغين العربيّة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز: وليكن جيماً بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟!

أما التعبير عن هذا الحرف اللهوي بجيم (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) فيمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. وبالطبع حتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، البرتجال، بلجاريا، مجنطيس.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

* * *

ZIGZAG JOURNEYS IN THE CAMEL COUNTRY

ARABIA IN PICTURE AND STORY

By
SAMUEL M. ZWEMER
and
AMY E. ZWEMER
Authors of "Topsy Turvy Land"



NEW YORK CHICAGO TORONTO
Fleming H. Revell Company
LONDON AND EDINBURGH

راموز عنوان الطبعة الأولى للكتاب، نيويورك 1911



الرّحّالة والمبشّر الأميركي
صموئيل مارينوس زويمَر في شبابه

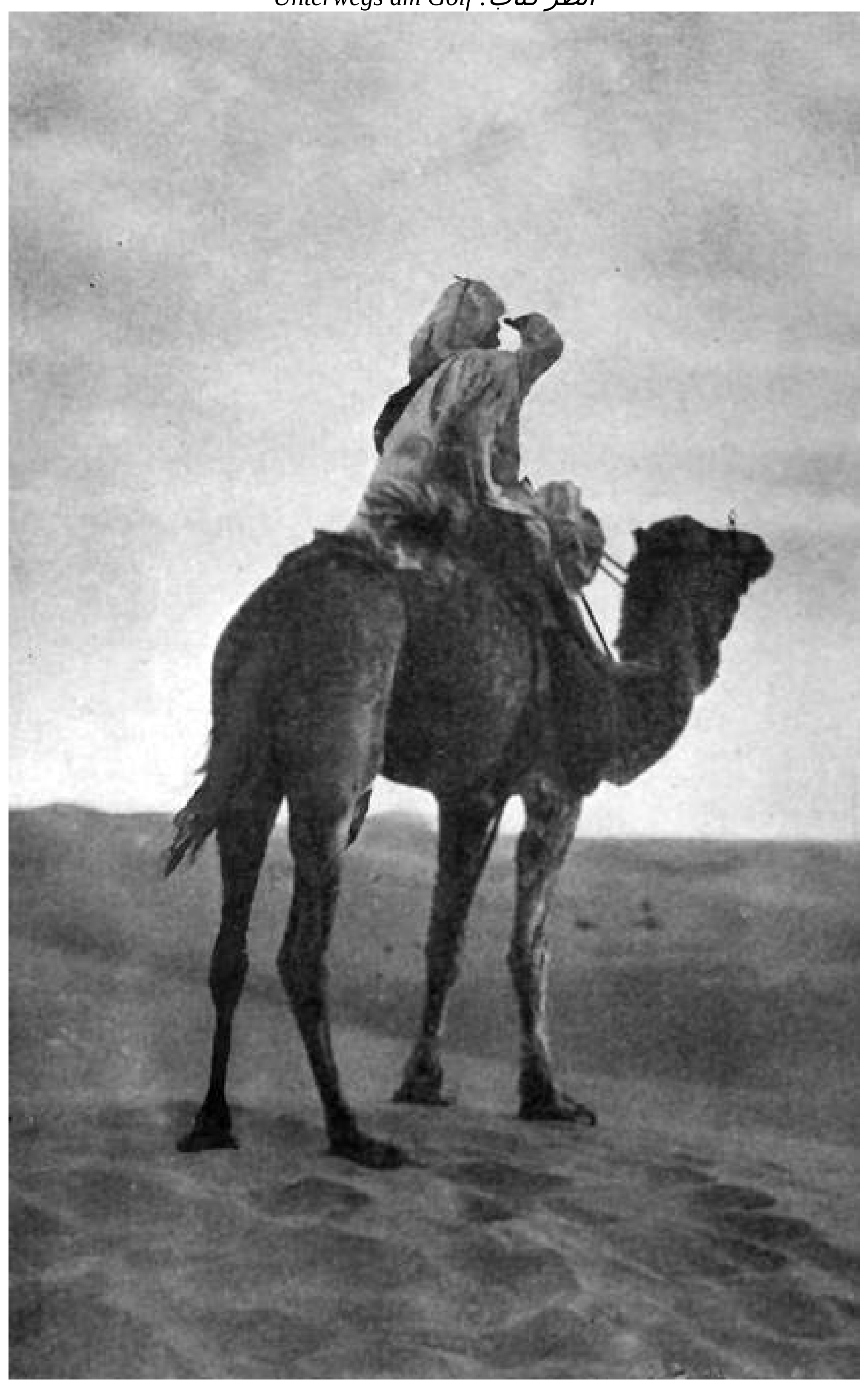


صموئيل زويمَر في شيخوخته



مجلس الشيخ زايد بن خليفة أمام مدخل قصر الحصن بأبو ظبي
صورة نادرة جداً من عام 1904 للمصوّر الألماني هِرمان بورخارت إبّان
رحلته في الخليج، وقد نجت صوره بأعجوبة من قصف الحرب العالميّة الثانية

انظر كتاب: *Unterwegs am Golf*



كشّاف الصّحراء

مقدّمة المؤلفين

هاكُم كتاباً آخر، مدعّماً بالصّور والقصص، نقدّمه إلى الفتيان والبالغين الذين استمتعوا بقراءة كتابنا «بلاد رأساً على عقب» Topsy Turvy Land، والذين لديهم شغف ورغبة في معرفة المزيد عن جزيرة العرب، مع الإشارة إلى أنّ الجزء الأكبر من بلاد الإبل ما برح عصيّاً مجهولاً، وفيه صحارى شاسعة لا زالت عذراء لم تطأها قدم غير أقدام الجمل وراعيه.

وكم هو قليل عدد المسافرين والمبشّرين الذين شاهدوا بأمّ أعينهم أشياء من خلال رحلاتهم المتعرّجة في جزيرة العرب طولاً وعرضاً.

فهل ترغبون بالاستماع إلى القصّة؟

هاهي ذي الجمال تنتظر، والقافلة على أهبة الاستعداد للبدء بالرّحلة. نتمنّى لكم ألا تشعروا بالتعب والإرهاق.. وإذا ألفيتم الرّحلة شاقة ومتعبة، فما عليكم إلا أن تروّحوا عن أنفسكم بين الفينة والأخرى بمشاهدة صور الواحات والصّحارى، المبثوثة بين ثنايا الكتاب.

صموئيل م. زويمر

إيمي إي. زويمر

شكر وتقدير

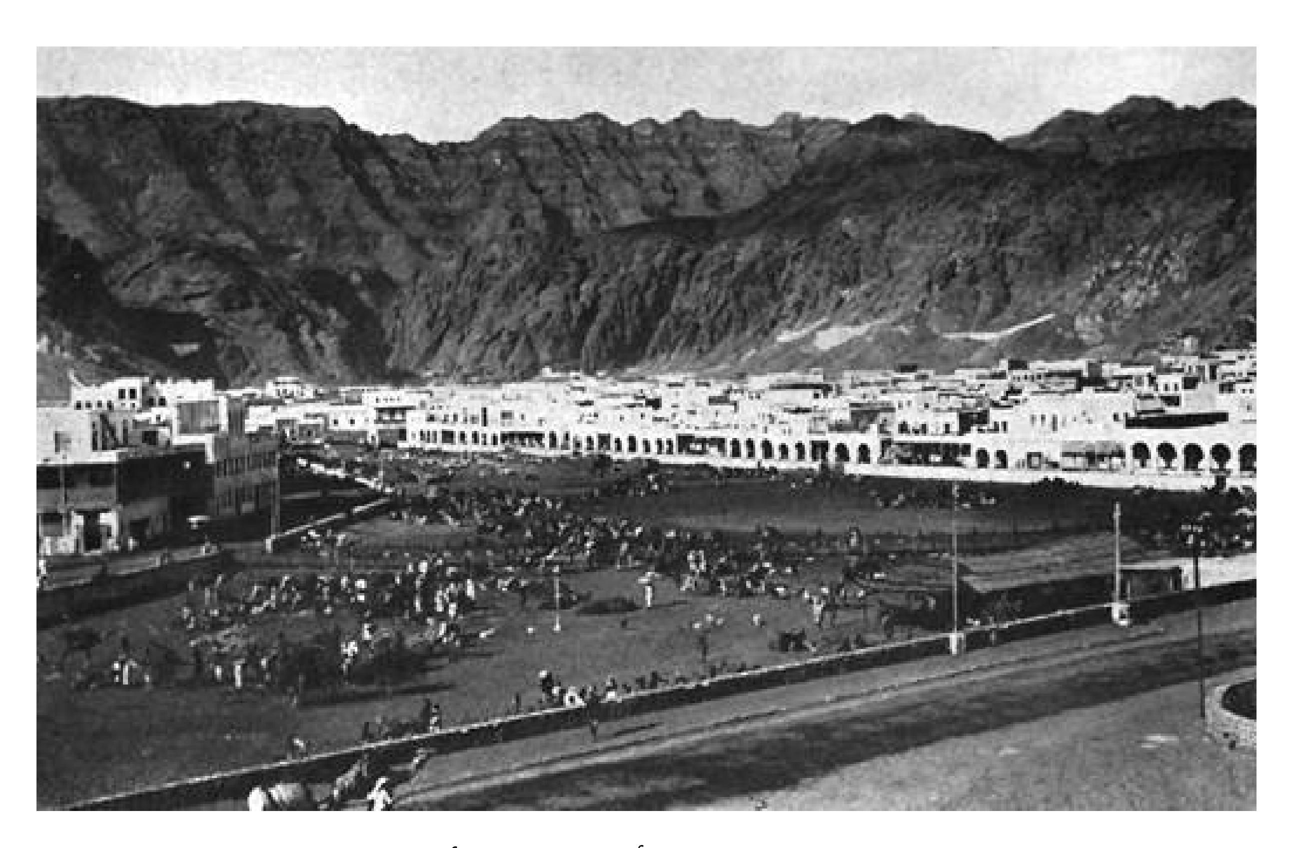
نحن ندين بالشكر والامتنان للسيّد ج. م. كوتينيو J. M. Coutinho المصوّر الفوتوغرافي في عَدَن لسماحه لنا باستخدام عدّة صور تشغل صفحة كاملة. وكذلك نقدّم شكرنا هنا لاستخدام عدّة صور التقطها صديقانا في سلك التبشير: القس ج. سي. يونغ Rev. J. C. Young والدّكتور شارون ج. تومس Dr. Sharon J. Thoms.

1 - رحلات متعرّجة في جزيرة العرب

التعرّجات هي الخطوط عبر صحارى جزيرة العرب التي ميزّت الرّحلات المرهقة لقوافل الجمال على مدى القرون. ليس لجزيرة العرب طرقات مستقيمة، بل إنها طرق ملتوية متعرّجة عبر الوديان وعلى المنحدرات الجبلية أو فوق الممرّات الرّملية الطّرية مهّدتها الأقدام المتثاقلة للحيوان ذي الرّقبة الطّويلة. وإن كل خطوة عبر النّباتات الشّائكة أو الأعشاب الخضراء على جانبي الطّريق تدلّ على الابتعاد عن الطّريق المستقيم. وهكذا تتعرّج القافلة نحو وجهتها. وترسم سفينة الصّحراء أثناء مسيرها خطوطاً تزيد عن تلك التي يشكّلها قارب يواجه عاصفة معاكسة في مرفأ ضيّق.

والواقع أنّ العرب، مثلهم كمثل الجمل، لا يحبّون الطّرق المستقيمة. فالنجّار العربي لا يستطيع رسم زاوية قائمة، وعامل البناء نادراً ما يستعمل الشّاقول. ويجد الخادم العربي صعوبة كبيرة في وضع الغطاء المربع على الطّاولة. والبيت العتيق في مكّة يسمى «الكعبة» (المكعّب)، لكنه غير متساوي الزّوايا والأضلاع ففيه تعرّجات. ولم تكن الطّرقات أبداً متوازية أو بمنعطفات قائمة، ولكنها تمتدّ عرضياً بكل أشكال الطّرق ما عدا أقصرها.

وهذا ما حدث بعد الطّوفان عندما تفرّق رجال القبائل من برج بابل بعيداً إلى الجنوب من شبه جزيرة العرب، فقد ساروا بطرق متعرّجة. فمنهم من ذهب بعيداً إلى شرق الخليج العربي وأصبح من صيّادي اللؤلؤ في البحرين. ومنهم من أخذ النّخبة من إبله وسار بها عبر الصّحارى القاحلة واستقرّ في عُمان ليغدو من أهم مربّي الإبل الأصيلة. ومنهم من ذهبوا جنوباً على طول مجاري الأنهار التي يدعونها الوديان، فوصلوا إلى الجبال الرّائعة ذوات الأشجار الخضراء والنّباتات العطريّة في اليَمَن. وآخرون هاموا بحبّ هواء الهضاب الجاف والنّقي، فنصبوا خيامهم المحبوكة من شعر الماعز وسكنوا مع قطعانهم، وهم حالياً قبائل البدو. وثمّة آخرون آثروا التوجه غرباً لشدة حر الأراضي القاحلة، وحطّوا رحالهم بالقرب من نبع يدعى زمزم وشيّدوا مدينة مكّة [المكرّمة]. كانت مياه النّبع، كما يقال، ذات فائدة ضد الحمّى والآلام، وبهذا أضحت مكة منتجعاً صحياً ومكاناً للتسوق، وفي النّهاية أصبحت مركزاً للعبادة. تأتي القبائل البعيدة في قوافل عظيمة كل عام لزيارة هذه المدينة وتبادل الأفراس والأباعر والقصائد الشّعرية.



سوق الجمال الكبير في عَدَن، حيث ألقينا موعظتنا الأولى في عام 1891

كذلك تجوّل في البلاد أولاد إسماعيل وأحفاد إبراهيم الآخرون، وقبل عصر داوود كانت الطّرقات المتعرّجة للقوافل المحمّلة بالبضائع النّفيسة من بلاد فارس والهند قد انتشرت في أنحاء جزيرة العرب. كان عرض الطّرقات وحيدة المسار بقدر عرض التجعدات في جبهة الرّجل المسن. لكن الطّرقات الواسعة كانت ثلاثة: امتدّ الطّريق الأول من عَدَن باتجاه الجنوب، والذي كان المرفأ الرّئيسي على طول الطّريق من جزيرة العرب إلى مصر. وهو الطّريق الذي سلكته ملكة سبأ عندما جاءت لترى سليمان بمجده وسلطانه. وامتدّ الطّريق الثّاني من بابل عبر الصّحراء إلى دمشق، أقدم مدينة في العالم، أما طريق القوافل الثّالث، ذو الأهمية المماثلة تقريباً للطريقين السّابقين، فهو ينحدر من مصبّ نهر الفرات إلى مأرب، العاصمة القديمة لملكة سبأ. أصبحت هذه الطّرق الصّحراوية الثّلاثة مكتظة بالقوافل يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وعاماً بعد عام لقرون عدّة. لقد أنشئت المدن العظيمة بالقرب من طرق الجمال، وإن آثار مدينة تَدمُر هي خير شاهد على أهمية جزيرة العرب وقدمها.

ولكن لسبب ما، اختارت التجارة طرقاً أخرى وفقدت جزيرة العرب أهميتها. وعندما توجّه حكماء المشرق [1] إلى بيت لحم، كانت الطّرق

الأساسية ما تزال موجودة، ولكن عند ولادة محمّد [2]، أصبحت مناطق أخرى في العالم أكثر أهميّة، ولم تعد جزيرة العرب معروفة كثيراً إلا لمن يسكنون في صحاريها.

إذن، فلا بدّ لنا في هذا العصر الحاضر من إعادة اكتشاف جزيرة العرب، وقصة إعادة اكتشافها لمليئة بالمتعة، وهي قصة الحملات المتعرّجة.

هناك مسافرون جريئون في أوروپا كان لديهم الفضول والرّغبة العارمة لمعرفة المكان الذي ولد فيه محمّد ورؤية مكّة المكرّمة، وإن رجالاً من أمثال بوركهارت Burckhardt وبُرتون Burton وغيرهم عرّضوا حياتهم للخطر فوصلوا إلى مكة والمدينة مع القوافل العربية وهم يلبسون ثياب الحُجّاج المسلمين. وفي عام 1862، قام پالغريف Palgrave برحلته الشّهيرة من غرب جزيرة العرب إلى شرقها. وفي عام 1876 ذهب داوتي Doughty، أحد أشجع الرّحّالين برحلته الطّويلة والشّاقة عبر الشّمال الغربي وشمال جزيرة العرب، وعرّض حياته للخطر. وأثناء معاناته الجوع والظمأ مع البدو، كان يُدفع من مكان إلى آخر حتى خرج في النّهاية من داخل البلاد بأمان.

ولكن قبل هؤلاء الرّحّالين المشهورين جميعاً، كانت رحلات كارستن نيبور Carsten Niebuhr في اليَمَن. ففي عام 1763، تمّ إيفاد كارستن من قبل ملك الدّنمارك لاكتشاف هذه الأماكن المجهولة القصيّة وكان معه خمسة مرافقين. وبعد عدد من الرّحلات الممتعة، عاد بمفرده بعد أن قضى مرافقوه نحبهم إما من الحمى أو من وعثاء السّفر.

وعلى الرّغم من جميع هؤلاء الرّحّالين الذين جالوا في أركان جزيرة العرب بُغية اكتشافها، فما زال هنالك كثير من المدن غير معروفة، ولم يقم أحد من المبشِّرين باجتياز جزيرة العرب بالرغم من أنهم قاموا برحلات في الدّاخل وعلى السّاحل. إنه لشيء يدعو إلى العجب، ففي واقع الأمر أن أحد أكثر الأمكنة التي ما زالت مجهولة حتى الآن لهي جزيرة العرب. تخيّلوا أنّ لدينا خرائط عن القطب الشّمالي وحتى عن سطح القمر أكثر من المنطقة الممتدة من جنوب شرق إلى وسط جزيرة العرب.

إن الصّحارى الموحشة والخوف من البدو، المستعدين دائماً لغزو ومهاجمة القوافل، وامتعاض المسلمين من المسيحيين، كل ذلك أدّى إلى إغلاق البلاد لسنوات عدة في وجه الرّحّالين والمبشِّرين؛ لكن بالرغم من إهمال جزيرة العرب لفترة طويلة، فقد أضحت الآن معروفة بشكل أفضل. لقد استُكشفت السّواحل ويتمّ اليوم بناء سكة حديدية عبر الصّحراء من دمشق إلى مكة، وأخرى على طول الحدود الشّمالية إلى بغداد. وفي الأشهر

القليلة المنصرمة، عَبر رحّالة بريطاني الصّحراء بسيارته، ويا لدهشة الجِمال آنذاك.

في الفصول القادمة، سنذهب في رحلات متعرّجة سوياً، أحياناً على الإبل ومرّات على ظهر الحمار، أو على متن القارب الشّراعي على طول السّاحل. لن نخبركم بما شاهده الآخرون أو سمعوه في بلاد الجِمال الرّائعة هذه، ولكن سنروي قصّتنا الخاصة وكلنا أمل أن تتعلّموا محبة العربي، وبلاده وجمله كما أحببناها، وتقوموا برحلات متعرّجة جديدة وسط خريطة جزيرة العرب، وتطبعوا رحلاتكم كمبشري المستقبل.

الإبل في موطنها - 2

إذا كانت بلاد العجم تشتهر بتربية الماعز، ومصر بالتماسيح، وكشمير بالأغنام، والتيبت بالثيران، والهند بالنمور، فإنّ جزيرة العرب هي بلا شك بلاد الجِمال! وإذا أردتَ رؤية الجِمال العربية حقيقةً، فلا بد من أن تأتي إلى جزيرة العرب. على الرّغم من مشاهدة الجمل في كل مكان، فلا يمكنك رؤيته بكامل جماله إلا في هذه البلاد التي يسميها العرب أنفسهم «أم الإبل». إن الجمل العُماني هو أمير الهجن الأصيلة، وهو يحظى باحترام كبير في أسواق الشّرق، حيث يباع بثلاثة أضعاف ثمن الجمال الأخرى.

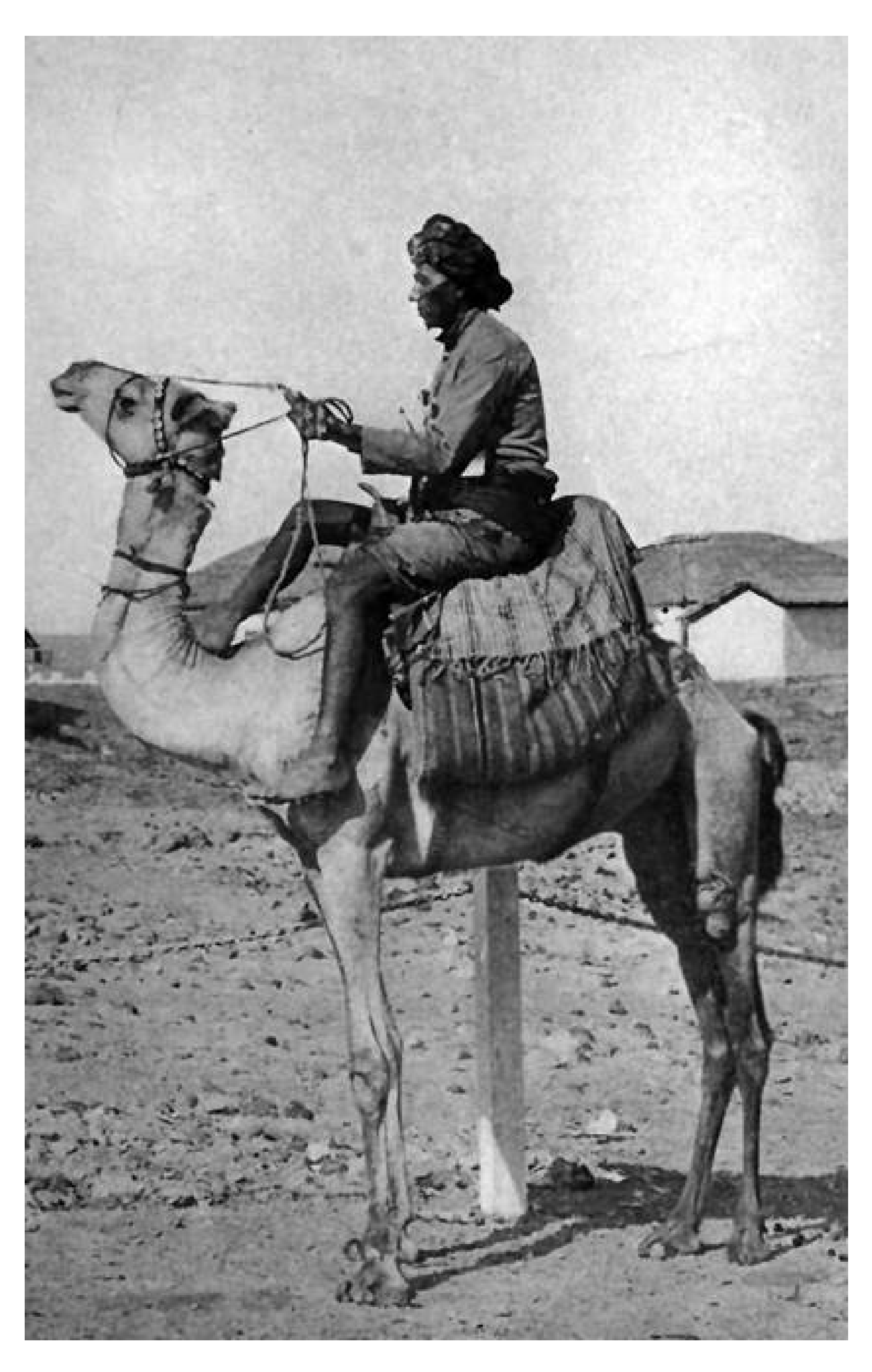
ولا عجب أن هذا الجمل قد بلغ حدّ الكمال في جزيرة العرب! فقد عاش في بيئته الصّحراوية وتدّرب على أيدي القبائل على مرّ العصور. هنالك علاقة وثيقة بين الجمل وجزيرة العرب، لدرجة أنك لا تستطيع فهم العرب أو لغتهم دونه. فدون الجمل، تصبح الحياة في الوقت الحاضر في جزء كبير من جزيرة العرب مستحيلة. ودون الجمل، تفقد اللغة العربية بحدّ ذاتها الكثير من التعابير والكلمات وربما الكثير من أصواتها الصّعبة. وعندما تتصفّح قاموس اللغة العربية، لا بد لك أن ترى في كل صفحة ذكراً لسفينة الصّحراء الجميلة هذه وشيئاً عن حياتها. لقد أعطاه العرب خمسة آلاف وسبعمئة وأربعة وأربعين اسماً مختلفاً، وليس بالنسبة للغة العربية فحسب، بل بكل اللغات «Jemil» تعني «الجمل» أي «camel».

عندما أرسل الإسماعيليون يوسف إلى مصر، وعندما زارت ملكة سبأ سليمان، كانوا يرتحلون على الجمال. كانت القوافل هي الأولى عبر الطّرق العظيمة إلى الشّرق، وكانت على الأرجح تحمل بضائع وركاباً أكثر من قطار پنسلڤانيا أو سفن المحيط الضخمة. وقديماً، قبل اختراع العربات، كانت الغلال كالقمح والشّعير والصّوف والبهارات تُحمل على ظهور الجمال عبر الصّحراء إلى نينوى ومصر.

هل شاهدتم يوماً سفينة الصّحراء؟ إنه حيوان ضخم ناتئ العظام، بارتفاع ستة إلى سبعة أقدام وصولاً إلى سنامه، وهو حيوان غير أليف وشكله بشع. عنقه طويل ولكن بانحناءة جميلة. أذناه صغيرتان بشكل هزلي، وشفته العليا مشقوقة إلى ما يقرب من أنفه، أما السّفلى فهي متدلّية وتعطي الوجه كله مظهراً كئيباً.

للجمل استخدامات كثيرة، وعندما يشيخ ولا يعود قادراً على الحمل يستعمل للأكل. وحليب النّوق كامل الدّسم. أما شعر الجمل فيستعمل في

صناعة الثّياب النّاعمة والخشنة، وجلده في صناعة الأخفاف وقِرَب الماء والأحزمة.



هجين سريع وهجّان البريد العربي

والجمل ذو السّنام يستخدم لنقل البريد، يحمل راعيه في رحلات طويلة تبلغ سبعين ميلاً في اليوم. وتُعدّ قافلة الجمال المعتادة بمثابة قطار شحن، تسير ببطء وهي تحمل البضائع الثّقيلة، أما فرقة (الهجّانة) المرافقة فهي بمثابة وسيلة نقل محدودة وسريعة. تسافر القافلة المعتادة ست ساعات في اليوم وثلاثة أميال في السّاعة، ولكن بإمكان الهجين الجيد أن يصنع العجائب في الطّريق. لقد ركب تاجر ذات مرة المسافة كلها من القصيم إلى الطّائف ذهاباً وإياباً لأكثر من سبعمئة ميل في خمسة عشر يوماً؛ ويستطيع الرّاكب السّريع في معان شمال جزيرة العرب إيصال رسالة إلى دمشق عبر مسافة مئتي ميل خلال ثلاثة أيام. يشبه الجمل المعتاد الحصان الذي يحمل البضائع، أمّا الهجين ذو الأصل العريق فقد أصبح كحصان السّباق.

والجمل العادي حيوان جسيم، ثقيل القدم، صعب المراس ومزعج. أما الهجين فأطرافه أدقّ، وشعره أنعم، رشيق الخطوة، وهو سريع ويستطيع تحمّل عطش الصّحراء. كل الإبل في جزيرة العرب لها سنام واحد، أمّا تلك الجمال ذوات السّنامين التي ترونها في السّيرك فهي ليست عربية بل هي من آسيا الوسطى. وحياة الجمل قاسية كقساوة رمل الصّحراء وتفتقر إلى الرّاحة كما تفتقر الصّحراء إلى العشب. وبكل تأكيد ليس لأي حيوان الحق بالتجهّم أو الشّعور بالغضب كالجمل. ودائماً مع المعاملة القاسية وقلة الطّعام والأحمال الثّقيلة في الأرض الصّحراوية حيث تُعد شجيرة الشّوك طعاماً سائغاً ومع غلاء ثمن المياه، فليس من الممتع لك أبداً أن تكون جملاً.

إن وصف الجمل هو بالتأكيد وصفٌ لنعمة الخالق على سكان المنطقة. ولدى العرب مقولة بأن الجمل هو من أعظم النّعم التي منّ بها الخالق على الإنسان؛ وعندما ودّ النّبي محمّد [3] لفت انتباه البدو البعيدين عن التديّن إلى العناية الإلهية ومحبّة الله تلى: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت». يستطيع الجمل، بعنقه الطّويل، الوصول إلى أشجار الصّحراء القاسية على طرفي الطّريق ويأكل وهو يمشي متثاقلاً. وبفضل جلد فمه السّميك والقاسي يستطيع أكل النّباتات الشّوكية الخشنة التي هي الأعشاب الوحيدة في الصّحراء.

إن أذني الجمل في غاية الصّغر، وهو يستطيع إغلاقهما عندما تبدأ عاصفة الصّحراء وتبدأ الرّمال بالانجراف كالعاصفة الثّلجية. ولكن جاعرتي أنفه كبيرتان تساعدانه على التنفس ويستطيع إغلاقهما عند العاصفة الرّملية الحارّة. عيناه محميتان بأجفان ثقيلة متدلية تقيه من شمس الظهر الحارقة، واعتادت أقدامه القوية الطّريّة على حمل جسمه والرّاكب الذي على ظهره. ولديه خمس طبقات متقرّنة واحدة فوق كل ركبة وواحدة تحت صدره لتدعم جسمه عندما يجثو على ركبتيه ليتلقى بعض الأحمال أو ليأخذ قسطاً من

الرّاحة فوق الرّمال السّاخنة. أمّا سنام الجمل فهو بمثابة سرج طبيعي للرّكوب والتجارة في البلدان على مدى السّنين. وتدعم عظام ظهره المقوسة السّنام وهي مركبة تماماً كجسر بروكلين، بشكل قوي ومتين لتتحمل أثقل الأحمال طيلة الرّحلة. يستطيع الجمل القوي حمل 1000 باوند، علماً أن الحمولة المعتادة ينبغي ألا تزيد عن 600 باوند. والجمل من أكثر الحيوانات الأليفة فائدة كما ترون في الصّور، فهو يستطيع حمل الأثقال أو جرّ المياه أو نقل البريد السّريع وطحن الذرة، أو جلب الأخشاب من الصّحارى لاستعمالها في التدفئة.



قافلة من اليَمَن تحمل الجلود لصناعة أحذية الأطفال الأميركيّة

طالما أن الجمل على قيد الحياة، فهو يعطي الوقود والحليب والشّعر الممتاز لصناعة الخيام والحبال والأغطية. وعندما يهرم الجمل يأكل العرب لحمه ويستعملون جلده لصنع الأحذية وعظام كتفه العريضة لصنع الألواح في المدارس في كثير من أنحاء جزيرة العرب. إن خطوة الجمل مقياس للمسافات متعارف عليه بين العرب، وثمن النّاقة الحلوب هو معيار تقديري بين بدو الصّحراء. والجمل من أكثر الحيوانات صبراً، لكنه يملك مزاجاً سيئاً وطباعاً خرقاء إلى أبعد الحدود، فهو لن يحاول رميك عن ظهره، لكنك إن وقعتِ من تلقاء نفسك فلن يتوقف من أجلك أبداً. وإذا تُرك في الصّحراء

وحيداً، ففرصته في معرفة طريقه إلى مضاربه تشكّل نسبة واحد إلى الألف. وعندما يغضب الجمل يحني رقبته المتعرجة إلى الوراء ويفتح فكيه الكبيرين محاولاً العضّ. هل لاحظت فكي الجمل القويين في الصّور؟ ورغم كل هفواته ومشيته غير الاعتيادية وهيئته القبيحة فإنك لا تستطيع إلا أن تعشق سفينة الصّحراء هذه عندما تقوم ولو برحلة واحدة على ظهره مع القوافل العربية. عندما تعلو ظهره، تشعر وكأنك تقف على برج كنيسة أو تحلق في طائرة وعندما تعتاد الحركة المتأرجحة تصبح في غاية الرّوعة وكأنك في خليج نيويورك تركب يختاً والرّياح تهب. عندها تشعر بالرّغبة في الغناء مع الشّاعر العربي: "Roast meat and milk; the swinging ride On a camel sure and tried, Which her master speeds amain O’er low dale and level plain."

«شواء وحليب؛ وركوب متأرجح

على متن ناقة واثقة ومجرّبة،

يحدوها راعيها على الإسراع

نحو الوادي المنخفض والسّهل المنبسط».

يمكنك أن تتعلم من هذا الجمل درسين، وأظن أن جميع الأولاد والبنات الذين يقرؤون هذا الفصل تواقون لمعرفتهما. الدّرس الأول هو كيف تستطيع أن تحمل أوزاناً ثقيلة دون تذمّر أو اعتراض. وهنا يكمن السّر من وراء حمل هذه الأثقال عند تحضير القافلة لرحلة طويلة، إذ يجثو كل جمل على ركبتيه ليتسلّم حمولته في الصّباح، وفي المساء يكرّر هذه العملية ليحطّ الحمولة على الأرض. ولهذا السّبب يستطيع نقل حمولته إلى نهاية مسيرته في الصّحراء. أليس من الأسهل لهذا العالم الضائع الذي هو بحاجة لأن يحمل خلاصه أن يتعلّم الرّكوع صباحاً ومساءً! نركع وندع يد الخالق التي تحملنا العبء هي نفسها تأخذه عنّا. عندها نشعر بالمسؤولية ولا نضيّع هدوء وراحة خدمة التبليغ الحقيقية. ألن تركع هذا المساء وغداً وتسأل الله أن يعلّمك هذا الدّرس؟ لأنك تعلم أن حمل عبء هذه البقاع القصيّة ثقيل فعلاً. عليهم جميعاً وعلى جزيرة العرب أيضاً عبء الخطيئة والمعاناة والأسى. يا لهذا الحمل الرّهيب! مع العلم أن الكتاب المقدس يقول لنا: «احمل عبء أخيك وحقق بهذا شريعة الرّبّ».

الدرس الثّاني هو عن الصّبر الذي هو الفضيلة الرّئيسية للجمل، الفضيلة الأكثر أهمية لكل مبشِّر صغيراً كان أم كبيراً. فطالما كانت قافلة الجمال الطّويلة تسير خلال المسالك الرّملية الضيقة وبين الأعشاب الشّوكية في القفار، تسير خطوة خطوة بصمت ودون توقف، كنت أفكر في النّص: «سوف يسيرون ولن يضعفوا»... فالحق أنّ السّير بصبر أفضل من السّير العَجول، إن

كان هذا في التبشير أو في جميع الأمور الأخرى. إنك تتعلم من هذا الحيوان أن تنتظر بجَلد. وأن تنتظر بصبر قطف الثّمار خيرٌ لك من أن تحفر لجلب البذور التي زرعناها قبل تبرعمها. والزّارع الأكبر كان لديه الصّبر الطّويل على كل بذرة زرعها، فأين نحن من ذلك؟

Let us, then be up and doing, With a heart for any fate, Still achieving, still pursuing, Learn to"
".labour and to wait

«دعونا نستيقظ ونفعل شيئاً،

بقلب مستعدّ للقدر،

ما برحنا نحقق إنجازاً ونتابع العمل،

ونتعلّم كيف نعمل وننتظر».

3 - على الطّريق إلى اليَمَن التي لم تطأها قدم

إن الذين يظنون أن جزيرة العرب هي رمال صحراوية مع بعض خيام البدو والجمال وطيور النّعام المنتشرة فيها، لم يشاهدوا بلاد اليَمَن قط.

إن اليَمَن هي من أكثر البقاع خصوبة، ومن أجمل أقاليم جزيرة العرب. تعني كلمة اليَمَن الجهة اليُمنى، وهذا الاسم أطلقه العرب الأوائل عليها كفأل حسن. وقد أطلق الرّومان عليها اسم الأرض العربية السّعيدة Arabia Felix لتمييزها عن الأراضي العربية الصّخرية Arabia Petrea والصّحراء العربية القاحلة Arabia Deserta.

لا يستطيع هؤلاء الذين لم يسافروا براً من عَدَن أن يتصوّروا كم تتميّز المرتفعات بتضاريسها الجبلية عن السّاحل الحارّ، وإنّ رحلة ثلاثين ميلاً إلى الدّاخل لهي مسافة كافية لإقناعك بهذا التميّز. لا تنمو الذرة بوفرة في ولايتي كانزاس أو آيوا أكثر مما تنمو في بعض أودية اليَمَن. ولو كان في هذا البلد حكومة جيّدة ولو كان الشّعب مسيحياً [4]، لكان من أكثر المناطق سعادة في العالم؛ إنها بلاد فيها البرتقال والليمون والسّفرجل والعنب والمانغو والخوخ والمشمش والدّرّاق والتفاح، كلها تنمو في مواسمها؛ ويمكنك أيضاً الحصول على الرّمّان، والتين والتمر والموز والتوت؛ وهي البلاد التي تزرع القمح والشّعير والبنّ بوفرة وفيها كمّ هائل من الزّهور البرية مع العلم أن البدو يدعونها حشائش ليس إلا. وهنا ترى أعشاش الطّيور المغرّدة تتدلى من أشجار الأكاسيا، والحمائم البرّية يلاحق بعضها بعضاً من شقوق الصّخور، بينما في أعالي المرتفعات، تشاهَد القرود البرية تلهو بين أوراق الأشجار.

لقد كان من وافر سروري القيام برحلتين في اليَمَن إلى العاصمة الجميلة صنعاء. فخلال رحلتي الأولى عام 1891 عبرتُ الطّريق الاعتيادي من الحُديدة على السّاحل، أما في عام 1893 فقد اخترت مسارات لم تطأها قدمٌ من قبل، مباشرة من عَدَن شمالاً لمشاهدة بعض الأماكن التي لم يزرها أحد ولكي ألتقي بالسكان القاطنين هناك.

لقد كان العرب في ذلك الوقت، وخلال رحلتي الأولى والثّانية، في حالة تمرّد ضد الأتراك. إنهم يحاربونهم منذ خمسة عشر عاماً لنيل استقلالهم، وهذه السّنة كانت البلاد في حالة تخبّط وقلق أكثر من أي وقت مضى، ولكن العرب

مشتتون، ليس لهم قيادة واحدة، والأسوأ من ذلك افتقارهم إلى سلاح المدفعيّة، ولهذا استطاعت الحكومة التركيّة سحق التمرّد مراراً وتكراراً وإخضاع هذه المنطقة العربية إلى قبضتها.

* * *

في صباح يوم الاثنين الثّاني من شهر يوليو، وعند الخامسة صباحاً بدأتُ الرّحلة من عَدَن مع غلامي صالح، راعي الإبل، ولم نتوقف حتى وصلنا قرية الواحات Wahat حوالي فترة الظهيرة. بدأنا ثانيةً عند السّابعة، حيث تبعنا العادات العربية في السّير وراء القافلة طوال الليل. كان الطّقس حاراً جداً دون أيّة نسمة هواء، ولا تستطيع رؤية الخضرة إلا حين دخولك وادي مرقة Merga. هناك أكلنا التمر الطّازج ونصبنا خيامنا تحت شجرة كبيرة من السّنط (الأكاسيا). كان الطّريق يتراءى لنا كلما اتجهنا شمالاً في الوادي، وفي منتصف الليل عبرنا سوق الجمعة. أخبرنا البدو أن هذا الجزء من الطّريق خطر للغاية، ولهذا قام البدو المرافقون لقافلتنا المؤلفة من اثنين وثمانين من الإبل بتجهيز بنادقهم ذوات القدّاحات flint-lock للإطلاق. وكان بحوزة أحد الرّجال بندقية سپرينغفيلد Springfield.

في الرّابع من يوليو، وقعنا في يد بعض من العرب الذين أرادوا القبض عليّ متهمين إياي بالتجسس للحكومة البريطانية، وكانوا ينوون حجزي كأسير حتى تُدفع الفدية من أجل إطلاق سراحي. وبعد جهد كبير استطعنا إقناعهم بأنني لست تابعاً للحكومة البريطانية، ولن يُدفع أي مال حتى لو تم استبقائي كسجين لعدة أيام.

كان لدينا في اليوم التالي مغامرة أخرى، فقد تسلقنا الوادي وعبرنا الحقول الخضراء، حيث كان الرّجال يحرثون الأرض وتقوم النّسوة بتعشيبها. عثرنا فجأة على قلعة تركية، حيث قال لنا المسؤول الزّنجي الجلف: «ممنوع على الغرباء دخول الحدود التركية!». وقام باحتجاز جميع متاعي وصادر كتبي وخرائطي وأرسلني تحت الحراسة إلى مدينة تَعز وهي المدينة الثّانية من حيث الأهمية في اليَمَن.

عند عصر ذاك اليوم هبّت عاصفة رعدية قوية من صميم سماء صافية وتحوّل الهواء إلى إعصار، حتى أن بعض الإبل فرت مذعورة وانقلبت المظلات التي نحملها إلى الخارج، والأنكى من ذلك أن سيلاً جبلياً محمّلاً بمياه المطر والبرَد جرف بعيداً حماراً وبعضاً من متاعنا. لقد تبلّلنا بالكامل، وفي النّهاية استطعنا إجبار الجمال على الصّعود فوق المنحدر إلى منزل أحد العربان الذي استضافنا بمتعة حول نار مشتعلة وقهوة عربية وحلوى.

كنا في هذا الوقت نعلو عن سطح البحر بثلاثة آلاف قدم، وكان الطّقس بارداً في الليل حتى في شهر يوليو. واصلنا السّفر في اليوم التالي عبر بلد كل إنسان فيه يخاف جاره. سألت مرشدنا لماذا لم يصلِّ منذ لحظة خروجنا من الواحات Wahat، فكان جوابه: «إذا صلّيت خلال الطّريق فسيصاب قلبي بالرّقة، وحينها أخاف من قتل قاطع طريق يمكن أن يكون مسلماً». شاهدنا الكثير من العقارب وكثيرات الأرجل تنام بعد تعرّضها لحمّام من المطر وهي تدفئ نفسها فوق الصّخور.

كانت كل انحناءة من الطّريق تظهر لنا قرى جديدة حيث ترى الفلاحين في كل الأماكن يجدّون في زراعة الأرض وريّها حتى تستطيع أن تعدّ دزينة من المساحات المزروعة فوق بعضها البعض على سفوح الجبال، كلها بظلال مختلفة الألوان من المحاصيل الخضراء. كنا بين الفينة والأخرى نلتقي بقوافل تسير نزولاً باتجاه السّاحل وهي محملة بالبنّ أو جلود الخراف كما ترون في الصّورة. يستطيع المرء سماع قدوم القافلة من خلال صوت حادي الإبل. بنغمة عالية وبتكرار لا ينتهي كانوا يغنون مقاطع كهذه عن إبلهم:

,O Lord, keep them from all dangers that pass"

".And make their long legs pillars of brass

«يا ربّ، احمها من كل الأخطار التي تواجهها،

واجعل سيقانها الطّويلة دعامات من نحاس».

* * *

بعد يومين، وصلنا إلى مدينة تَعز القديمة، وهي غاية في الأهميّة، وأظن بأنني أول رحّالة أجنبي يزورها من عهد الرّحّالة الدّنيماركي نيبور Niebuhr في عام 1763. وبينما كنت أنتظر الحاكم للنظر في حجز أمتعتي وأمر جواز سفري، كانت لدي الفرصة لدراسة المدينة. لتَعز كثافة سكانية تبلغ حوالي سبعة آلاف نسمة، فيها مسجدان أو ثلاثة مساجد قديمة ذات مآذن، وفيها كنيس يهودي وسوق محترم. خلف المدينة، هناك جبل يدعى قلعة العروس، تستطيع من قمته رؤية المناظر بوضوح حتى السّاحل الأفريقي.

أخذت الحكومة التركية كامل وقتها في التحقيق بأمتعتي وتسليمي جواز سفري، وكان ذلك في السّادس والعشرين من شهر يوليو قبل مغادرتي تَعز. حتى هذا الوقت لم يُطلق سراحي بعد، فلقد تم ترحيلي من الحاكم المحلي إلى العاصمة مع موظف حكومي يمتطي جواداً جميلاً، وكنت أتبعه على ظهر بغل. لم يكن صعباً الخروج من تَعز وصعود الجبال والتمتّع بنسيم الرّيف العليل.

أخذت الرّحلة يوماً كاملاً صعوداً عبر الجبال حتى وصلنا إلى مدينة إبّ، حيث أُودع خادمي السّجن لأنه كان يخبرني بأسماء القرى. وبصعوبة أُفرج عنه،

وتدلّ هذه الحادثة على مدى ريبة الأتراك تجاه الغرباء الذين يسافرون في بلادهم. بعد اثنتي عشرة ساعة أخرى وصلنا إلى يَريم، وهي مدينة غير صحيّة تقع بالقرب من مستنقع.

كان هذا في التاسع والعشرين من شهر يوليو وقد هبطت درجة الحرارة إلى 52 درجة فهرنهايت بسبب العاصفة المطرية والارتفاع الكبير. كانت الحرارة مختلفة عن تلك التي في عَدَن، إذ تجاوزت عندما غادرتُها 105 درجات في الظل. أما في قرية المعابر Maaber، حتى في الظهيرة كانت الحرارة تقريباً 65 درجة، وقد تلفّعنا وكأننا في بعثة إلى القطب. في أعالي جبال اليَمَن تهطل الثّلوج في فصل الشّتاء ويصبح الجليد شيئاً اعتيادياً.

بعد مغادرتنا ليَريم مررنا بصخرة كبيرة على الطّريق تخال وكأن قدم أحدهم قد طُبعت عليها. يقول العرب إنها قدم عليّ حفيد محمّد [5] الذي سار في هذا الطّريق، وهم بمجرد مرورهم بها يقفون للصلاة أمامها ويدهنونها بالزيت.

* * *

على طول الطّريق من يَريم إلى صنعاء تبدأ الهضاب بالاستواء، وترى السّهول الواسعة المزروعة بالقمح والشّعير بدلاً من نبتات البنّ. أما المنظر المضحك فهو رؤيتك للجمال وهي مربوطة بالمحاريث من أجل الحراثة. كانت بأعناقها الطّويلة ولجاماتها الغريبة كبيرة جداً على هذا العمل، لقد كان مشهداً غريباً فعلاً.

كانت محطتنا التالية مدينة ذمار Damar ذات المساجد الثّلاثة والبيوت المبنية بالحجر. تبعد المسافة من ذمار إلى وَعلان Waalan خمسة وثلاثين ميلاً، ثم إلى صنعاء ثمانية عشر ميلاً أخرى. كانت الطّرقات رائعة، وهي معبّدة جيداً لمرور مدافع الأتراك، مع العلم بأنهم لا يستعملون العربات أو الخيول على هذه الطّرقات.

يوم الخميس في الثّاني من شهر أغسطس، دخلتُ صنعاء عبر بوّابة اليَمَن وكنتُ قد دخلتُها سابقاً قبل ثلاث سنين عبر النّاحية الأخرى آتياً من الحُديدة. لقد تمّ تسليمي إلى شرطي حيث انتظرتُ الحاكم لسماع قضيتي. وبعد أن التقيتُ بصديق يوناني قديم كنت قد تعرّفت إليه في عَدَن، تكفّل بدفع كفالتي وأصبحت حراً.

حينها أمضيتُ تسعة عشر يوماً في مشاهدة المدينة وزيارة العرب. وسوف تسمعون المزيد عن صنعاء في الفصول القادمة. لقد نسيت أن أذكر لكم أنني عندما كنت نائماً في المقهى في يَريم، تعرّضتُ لسرقة أموالي من

قبل مسلحين، وبذلك انتهت رحلتي المتعرّجة التي لم أكن منهكاَ بسببها فحسب بل مُعدماً؛ ولو لم أرهن ساعتي ومعطفي لكنت مديوناً لصاحب الفندق. إنّ الرّحلات الرّائدة في هذه البلاد التي سمّيناها «بلاد رأساً على عقب» Topsy Turvy Land لا يمكن أن تتمّ بغير عناء.

4 - التّوجّه إلى السّوق لنثر البذور

الحقيقة أن العرب هم من الطّراز القديم، فعاداتهم وتقاليدهم لم تتغيّر منذ أن ذهب إسماعيل وهو طفل صغير على ظهر الإبل برفقة والدته هاجر وحطّا رحالهما في مكان ما في جزيرة العرب. وأعتقد أن العرب والسُّريان Syrians حتى في تلك الأزمان الغابرة قد حافظوا على اختيار يوم من الأسبوع لتبادل سلعهم التجارية والتعرّف إلى بعضهم والرّجوع إلى قراهم بأفكار جديدة عن عالمهم الصّغير. إن عادة تعيين يوم من كل أسبوع للتجارة ما زالت قائمة في جزيرة العرب حتى في القرى الصّغيرة. وفي الحقيقة فإن بعض القرى اشتقت اسمها من هذه الأسواق كالخميس أو السّبت لأن القرى في هذه الأيام لها من الأهمية نصيب كبير ويتضاعف عدد سكانها. لكن أيام الأسبوع عند العرب مختلفة عن أسماء أيامنا، فعوضاً عن تسميتها بأسماء الأصنام مثل Thursday نسبة إلى ثور Thor و Wednesday نسبة إلى الإله القديم أودين Woden، فهم يرقّمون أيام الأسبوع كما في الفصل الأول من سفر التكوين، فمثلاً: الأحد «اليوم الأول» والاثنين «اليوم الثّاني»... الخ. أما يوم الجمعة فهو اليوم الوحيد المميّز، إنه اليوم المقدس في الأسبوع وتدعوه أمة محمّد «بيوم الاجتماع» أي الجمعة لأنهم يذهبون إلى السّوق للصلاة وسماع الخطبة.

و«سوق الخميس» الذي يُعقد كل خميس في الهواء الطّلق هو السّوق المكتظّ على مدار السّنة، سواء كان الطّقس صحواً أو ماطراً (وهو صحو في معظم الأحيان في جزيرة العرب) ويقام بجانب الآثار المتبقية من المسجد القديم على بعد ثلاثة أميال من قرية المنامة في مدينة البحرين حيث يسكن المبشّرون. يمكن رؤية المئذنتين الطّويلتين للمسجد من السّوق، وهو أحد أقدم المساجد في شرقي جزيرة العرب حيث بُني قبل عدة مئات من السّنين وأعيد بناؤه عدة مرات. لكن هذا المسجد لا يستعمل الآن للصلاة ولا للتكبير في مآذنه، حيث أنه في الواقع قد توالت عليه المذاهب الواحد تلو الآخر ممن امتلكوا البناء، وخلال النّزاعات الدّينية التي ظهرت أخذ يتداعى. يستخدم جزء واحد من المسجد الآن كزريبة للماعز. أما الصّخور الرّمادية مربعة الشّكل التي بُني منها المسجد فقد تبعثرت وتستعمل الآن كمقاعد للزائرين، وكل مسافر يزور البحرين يرتقي إلى أعلى هاتين المئذنتين للتمتع بمناظر الجزر الجميلة.

إن كنتم تستطيعون قراءة الكتابة القديمة المحفورة على الحجارة بالنص العربي، فلكم أن تروا كم من الأيدي المتنافسة من الفرقتين الإسلاميتين اللتين تسميان بالسّنة والشيعة، قد وضعت يدها على المسجد، وإن كنتم تستطيعون أن تزوروا غرف التبشير في الكنيسة التي أعيد إصلاحها في نيويورك، يستطيع المسؤول هناك أن يُريَكم المطرقة المصنوعة من عارضة خشبية كانت في سطح هذا المسجد. كانت قطعة كبيرة من العارضة الخشبية قد سقطت على الأرض واستخدمت كمطرقة، وهذا يدل على أن دين الإسلام في جزيرة العرب ينحسر [6]، وبهذا ليس للمبشرين أن يخافوا من دخول بلاد محمّد.

* * *

صباح كل خميس، يكون صحن المسجد في غاية الازدحام. وغالباً ما كنت أذهب على ظهر الحمار إلى السّوق تحت حرّ الشّمس لأرى آلاف الأشخاص يزدحمون بثيابهم وعباءاتهم الملونة، نساءً ورجالاً وأطفالاً، وهم منغمسون في التجارة أو اللهو أو يتجادلون حول سلعة معينة! ربما يجلب أحدهم قرب المياه من جبل علي، ويضع آخر على ظهر حماره حمولة ضخمة من الحبال والحصر ليبيعها، وآخر يحمل السّلال المليئة بالبطيخ والرّمّان والتمر والليمون الحامض والخضار. تتدثر النّساء بعباءاتهن السّوداء وهن ينظرن بصعوبة من خلال فتحة صغيرة، ويفترشن الأرض في الهواء الطّلق لبيع مجوهرات وحلي رخيصة وزجاجات صغيرة من العطر ومسحوق الكحل الأسود، الذي تستعمله النّسوة لتكحيل عيونهن.

والحلاق، الذي يحلق الرّؤوس واللحى مقابل دراهم قليلة، مشغول باستعمال شفرته بمهارة. أما صانع الخبز فيأتي باكراً ليجهّز فرنه المفتوح ويخبز أرغفته. إنه يرقّ العجينة على قطعة من الخشب ثم يسوّيها بأصابعه ويرميها على أطراف الفرن الحار حيث تلتصق وتنضج بسرعة لتكون قطعة خبز كبيرة، خفيفة، كاملة النّضج. يا إلهي كم هو لذيذ الخبز العربي، وخصوصاً عندما تكون جائعاً أو عندما تجلس بضيافة عربي ويقدم لك الخبز مع السّمن الطّازج والعسل.

أما جموع البدو الذين يأتون لبيع الخراف أو الجمال فهم بصوتهم العالي وأجسادهم نصف العارية يأتون باستمرار وقد كانوا هنا هذا الصّباح: "Rich man, poor man, beggar man, thief; Doctor, lawyer, merchant, chief; Butcher, baker and candlestick maker."

«الغني، والفقير، والشّحاذ، واللص؛

الطبيب، والمحامي، والتاجر، والرّئيس؛

اللحام، والخباز، وصانع الشّمعدانات».

فإذا حضر صانع الشّمعدانات، الذي يبيع الشّموع أكثر من الشّمعدانات، لماذا يغيب المبشّر الذي أُرسل لينشر نور الحياة بين البشر؟

لذلك كلما سنحت لنا الفرصة، كنا نزور السّوق ونقوم ببيع الكتب والأناجيل، ونعظ النّاس الذين يريدون الاستماع. ليس من السّهل التبشير أو البيع في هذا المكان، لكن النّاس يأتون في الغالب لتتسنّى لهم الفرصة لمشاهدة أصدقائهم وجهاً لوجه أو لتجديد صداقات قديمة وخصوصاً عند القرويين الآتين من أماكن بعيدة كجزر البحرين. إن أجزاءً كثيرة من كتاب العهد القديم المقدّس قد روت عن قصة زرع الله للبذرة الجيدة في قلوب العرب، على أمل أن الله سيستعمل هذه البذرة لجعلهم يعتقدون بأن المسيح هو مخلّصهم. إذا بيعت الكتب [7]، فغالباً ما تنقل إلى القرى البعيدة، ومن الممكن أن تتعرّف هنا على العرب الذين أتوا من الأرض الأم ليزوروا الجزر، علماً أنه من المؤكد أنك ستلتقي بأصدقاء قدامى لم يتسنّ لهم القدوم لرؤيتك منذ زمن بعيد.

اعتاد أحد التجار على عرض بضاعته وكان من أحد المسلمين القلائل، في أيام أعمالنا المبكرة، السّعداء بالترحيب بالمبشِّرين. عندما يشتد الحر، تكون مظلة دكانه ملجأنا حيث كنا نجلس ونتحدّث إلى المارّة. بالقرب مباشرة من المئذنتين الطّويلتين كنا في بعض الأحيان نناقش القرآن الكريم وتعاليمه، حيث كنا نخبر العرب كيف أن كتاب محمّد [8] يشير إلى كتاب العهد القديم وعيسى المسيح النّبي العظيم الذي ما زال حياً. فهلاّ تضرّعتم وصلّيتم إلى الله كل خميس ليبارك لكم في قطعة أرضكم المسماة سوق الخميس حيث زرعنا بذرة كلمة الله بانتظار الحصاد؟

"Sowing the seed with an aching heart, Sowing the seed while the tear-drops start, Sowing the seed till the reapers come Gladly to gather he harvest home; Gathered in time or eternity, Sure, ah sure, will the harvest be."

«زرع البذور بقلب كليل،

زرع البذور بينما تبدأ الدّموع بالانهمار،

زرع البذور إلى أن يأتي الحاصدون

بسرور ليذهبوا بحصادهم إلى المنزل،

المجني الآن أو عند الخلود؛

بالتأكيد، نعم بالتأكيد، سيكون الحصاد».

5 - الموطن الذي عاشت فيه ملكة سبأ

كلكم تعلمون عن القصة المذكورة في سفر الملوك الأول (الأصحاح 10) عن زيارة ملكة سبأ إلى الملك سُليمان الذي سمعت عن شهرته في مملكتها البعيدة الواقعة في جنوب غرب جزيرة العرب، ولكن القصة كما ذُكرت في القرآن مختلفة جداً وتحتوي على روايات مثيرة متداخلة معها. تجدها في «سورة النّمل»، وها هي ذي القصة:

{ولقد آتينا داوود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين. وورث سليمان داود وقال يا أيها النّاس علمنا منطق الطّير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين. وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطّير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على واد النّمل قالت نملة يا أيها النّمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكاً من قولها وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصّالحين. وتفقّد الطّير فقال ما لي لا أرى الهُدهد أم كان من الغائبين. لأعذّبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطت ما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدتُ امرأةً تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرشٌ عظيم. وجدتُها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم فصدهم عن السّبيل فهم لا يهتدون}.

وهكذا يتابع القرآن ليخبر كيف أن سُليمان أرسل لها برسالة وأرسلت إليه مبعوثين، وفي النّهاية أوعز إلى أحد جِنّه ليحضرها له هي ومملكتها من جنوب غرب جزيرة العرب. فقام بفعل ذلك بطرفة عين، وبعد مشاهدتها لسليمان وسلطانه اعتنقت ديانته!

وعلى الرّغم من أنّ قصة ملكة سبأ قصة رائعة، فليس هناك أدنى شك بأن قصة الكتاب المقدّس هي قصة حقيقية وأن المكتشفين الحديثين قد زاروا مملكة سبأ وعاصمتها القديمة مأرب، التي تبعد مسافة قصيرة إلى الشّرق من صنعاء وقد أحضروا معهم نقوشاً تشهد على مجد مملكتها القديمة. يذكر كتاب العهد القديم بأن السّبئيين قد عاشوا في سبأ وأنّ قوافلهم كانت تجلب الذهب والأحجار الكريمة والبهارات إلى أماكن بعيدة. (انظر سفر أيّوب، 6: 19؛ وسفر حزقيال، 27: 22؛ وسفر المزامير، 10: 52).

خلال زيارتي الأولى والثّانية إلى صنعاء، عاصمة اليَمَن الجبلية المرتفعة، أتيحت لي الفرصة لمشاهدة حدود الدّولة التي عاشت فيها ملكة سبأ، وخلال رحلتي التي ذكرتُها في الفصل الثّالث ربما أكون قد سافرت من السّاحل عبر الطّريق نفسه الذي استُعمل في أيام سليمان، وليس من السّهل حفر طرقات في بلد يحفل بالجبال. يستطيع الإنسان مشاهدة آثار وحضارة مدينة حِميَر التي ازدهرت هنا منذ زمن سُليمان وحتى ظهور المسيحية. وبعض هذه الطّرقات لا شك بأنها قد تمّت صيانتها منذ أنشئت على سفوح الجبال من قبل المعماريين الأوائل.

إن الجسور الحجرية عبر قواعد السّيول وأحواض حفظ المياه والقلاع القديمة بنقوشها باللغة الغريبة، لا تزال شاهدة على عظمة وقوة هذه الإمبراطورية القديمة. والصّورة المرافقة ليس لملكة سبأ ولكنها من دون شك لأميرة من دولة سبأ، وُجدت ضمن نقوش ومنحوتات كثيرة في جنوب أرض مأرب، العاصمة القديمة، حيث تم بناء السّدّ المشهور الذي دُمّر بالطوفان. عندما تنظرون جيداً إلى الصّورة سوف تجدون بأن ثوب المرأة المزخرف، دون خمار، وأنّ استعمال العرش والأعمدة المنحوتة والغلمان (أم لعلهنّ فتيات؟) تختلف عن جزيرة العرب في هذه الأيام. إن هذه الصّورة لهي مثيرة أيضاً عندما نتذكر كيف أن الرّحّالين والعلماء الأوائل الذين نسخوا أو أحضروا معهم هذه النّقوش الشّهيرة [9] قد طابقوا تاريخ العهد القديم ومراجعه العديدة في جنوب جزيرة العرب. يقول أحدهم: «إنّ ملكة سبأ قد اختبرت سليمان بعدّة أسئلة صعبة، فأجاب عليها كلها بحكمته. يستطيع الدّارس للعهد القديم الآن عكس هذه القصة والذهاب إلى المملكة العجيبة لتلك الملكة بعدد وفير من الأسئلة والتي حصلنا في معظمها على إجابات مُرضية» [10].

إن معظم مدينة مأرب عاصمة ملكة سبأ قد تهدّم، ولكن شيئاً من عظمة المدينة القديمة وحضارتها ما زال قائماً في صنعاء التي تُعد من أجمل وأقدم مدن بلاد جزيرة العرب التي تم بناؤها قبل عهد سُليمان. تقع المدينة في وادٍ فسيح، ارتفاعه 7,250 قدماً عن سطح البحر. وجبل نَقم Nakum بمقالعه الرّخامية يرتفع بشكل منحدر كالحصن، إلى الشّرق من المدينة تماماً. ويحيط بالبلدة سور مرتفع، ولها أربعة أبواب، ومعظم المنازل تتألف من أربعة أو خمسة طوابق مبنية بالحجارة، وبسبب افتقارها إلى النّوافذ الزّجاجية، تمّ استبدالها بألواح من المرمر. يبلغ عدد سكان هذه المدينة خمسين ألف نسمة تقريباً، بينهم أكثر من عشرين ألف يهودي.



صورة منقوشة في الحجر قبل 2000 سنة
وبها كتابات، من بلاد سبأ

كانت زيارتي الأولى لهذه المدينة عام 1891 والثّانية في عام 1894. في المرة الأولى قدِمت مباشرة من الحُدَيْدة عبر مناخة Menakha ووصلت المدينة في خلال أربعة أيام. أما في الرّحلة الثّانية فقد أتيت من عَدَن، من جهة الشّمال، مغادراً بتاريخ الثّاني من يوليو، ولم أصل عاصمة اليَمَن حتى الثّاني من أغسطس، وهذا التأخير كان بسبب سجني من قبل الأتراك في تَعز.

إن أكثر ما يُدهش في صنعاء ليس آثارها القديمة وتربتها الخصبة، بل طبيعة شعبها المثيرة. هنا كانت مدينة ضخمة مليئة باليهود الذين أتوا إلى هذا الجزء من العالم، كما يعترفون، منذ زمن بعيد قبل خراب القدس [11]؛ وكان التجار اليونان يتبادلون مع عرب الدّاخل أصنافاً تم تصنيعها في أوروبا؛ بينما كان الجيش التركي ببزّاته الرّسمية الرّائعة يحاول دون جدوى، وكما هو الحال اليوم أيضاً، إخماد ثورة العرب مستنداً إلى قوّاته المنظمة وغيرها؛ وهناك العرب أنفسهم، رجالاً ونساءً وأطفالاً، سكان الجبال الأشداء بحبّهم للحرية وما يكنّون في قلوبهم من الكراهية للأتراك، ليسوا قابلين للخضوع.

إذا نظرنا إلى الشّمال من هذه المدينة نستطيع أن نرى مرتفعات عَسير والطّرق البعيدة المؤدية إلى نجران. كان كل سكان هذه المنطقة في يوم من الأيام من المسيحيين، وفي صنعاء نجد الكاتدرائية العظيمة التي تم بناؤها من قبل ملك الأحباش أبرهة في الوقت الذي ولد فيه محمّد. ومن صنعاء قاد جيشه إلى مكّة آملاً بالاستيلاء على المدينة وإجبار أهلها على اعتناق المسيحية، ولكنه لم يوفَّق. وفي سورة الفيل في القرآن تستطيع أن تقرأ كيف أن المسيحيين هُزموا بسبب تفشّي مرض الجدري بينهم.

وإن وقفتم على منحدرات جبل نَقم Nakum ونظرتم شرقاً، فإن مملكة سبأ تظهر أمامكم كاملة. وتستطيعون أن تتخيلوا كم كنت آسفاً حين تمت سرقة كل أموالي في الطّريق، وكان من المستحيل عليّ متابعة مسيرتي من صنعاء إلى مأرب، ومن هنالك عبر جزيرة العرب إلى البحرين. ربما سيتسنّى لبعض من يقرؤون هذه الأسطر القيام بهذه الرّحلة. وإن قمتم بها، سوف تمرّون من خلال أكثر الآثار أهمية في العالم وتحسّون بمشقة رحلة الجمل التي سيتم التعويض عنها بسخاء بما سوف تشاهدونه على الطّريق.

يهود خيبر 6

إن كل قاطني بلاد الإبل تقريباً هم من المسلمين، ولكن الأمر لم يكن دائماً على هذه الحال. فقبل أيام النّبي محمّد كان في جزيرة العرب الكثير من المسيحيين واليهود. عاش المسيحيون في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة، أما اليهود فقد كانت لديهم مستوطنات كبيرة في مكة والمدينة وليس فقط في مملكة سبأ التي سمعنا بها. إن مكّة والمدينة هما الآن المدينتان الأكثر قدسية، وكان اليهود قد تمركزوا في منطقة تقع شمال المدينة، وهي خيبر. كان بعض بني إسرائيل قد جاؤوا إلى بلاد العرب منذ زمن الأسر عندما أُخرجوا من بلادهم بعد الاضطهاد الذي تعرضوا له واستقرّوا في أودية نجران ومرتفعات اليَمَن [12]، هذه الأراضي الغنية والخصبة، وهناك آخرون جاؤوا إلى جزيرة العرب منذ ولادة عيسى المسيح.

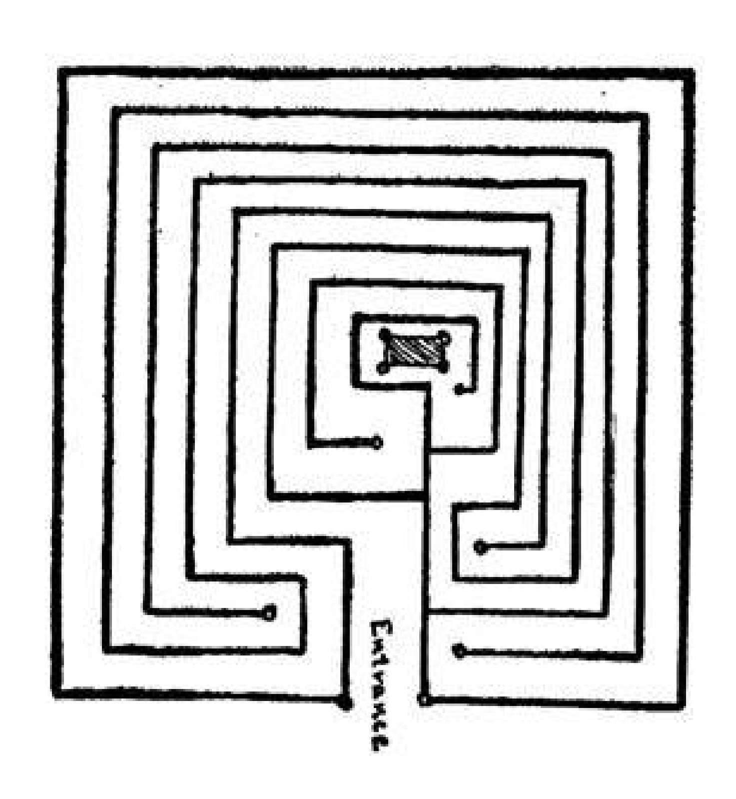
لا زال هناك يهود في جزيرة العرب، ولكن عددهم أقل من السّابق. أحوالهم المعيشية محزنة، وغالباً ما يضطهدهم المسلمون. ليس هناك مبشِّرون بينهم في الوقت الحالي بالرغم من زيارة بائعي الكتب الدّينية لهم الذين أحضروا لهم كتاب العهد الجديد باللغة العبرية ليستطيعوا قراءة قصة عيسى المسيح المخلِّص. لقد سنحت لي الفرصة بالتكلم مع مجموعة كبيرة من اليهود في مدينة صنعاء عاصمة اليَمَن، وكم كان مؤثراً معرفة أن هؤلاء اليهود لم يكونوا من ذراري اليهود الذين رفضوا عيسى وقادوه إلى الصّلب، لأنهم أخبروني أن أجدادهم قد غادروا الأرض المقدسة منذ سنوات عديدة قبل ولادة السّيد المسيح في بيت لحم [13].

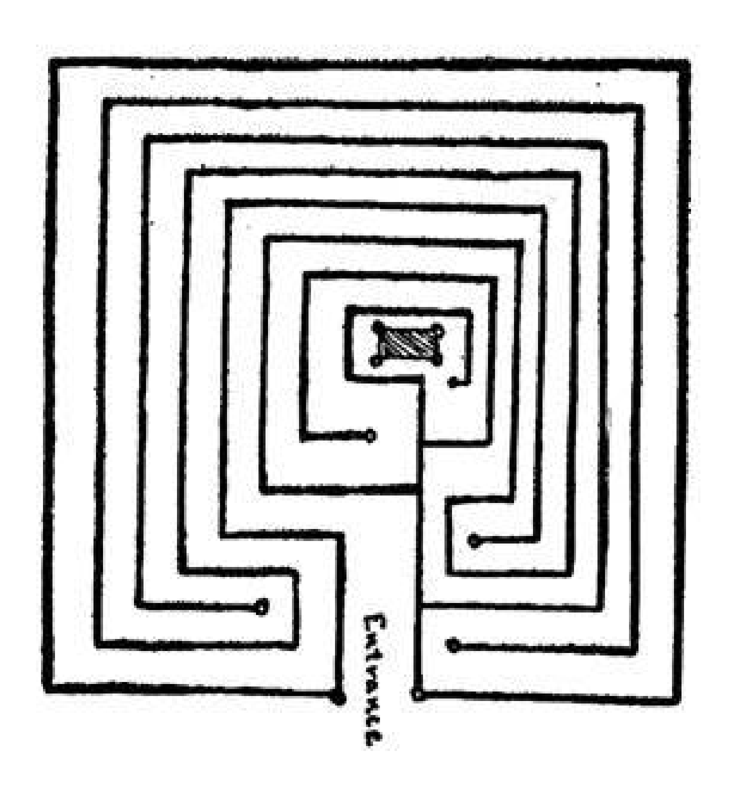
ولكنني أودّ إخباركم عن يهود خيبر. في شمال شرق المدينة حيث يقع ضريح محمّد، هناك امتداد صخري قاحل، وفي وسطه وادٍ توجد فيه ينابيع المياه وبجهد كبير يمكن زراعة بعض النّباتات. استوطن هناك آلاف اليهود قبل عصر محمّد [14]، فحرثوا التربة وعاشوا في سعادة حتى قدوم محمّد النّبي العربي ومحاربيه الأشداء للتبشير بالدّين الجديد وملؤوا الوادي بجثث الذين لم يقبلوا بدعوتهم [15].

تستطيعون قراءة أخبار هذه الحملة في سيرة حياة محمّد. كانت المعركة دموية بين المسلمين واليهود والتي يرويها بدو المنطقة عندما يرون آثار صدأ الحديد على ضفاف الجداول: «انظر كيف أن الأرض تطهّر نفسها من دماء

اليهود الغزيرة التي أهرقت بعد فتح خيبر». وحسب ما ترويه قصص الكتّاب العرب، فقد كان نضالاً يائساً. إنّ اليهود لم يعطوا النّبي محمّد انتصاراً سهلاً. ولكي يدافعوا عن أنفسهم ضد البدو المحاربين فقد شيّدوا في وسط واديهم عدّة قلاع أو حصون، إحدى هذه القلاع رائعة للغاية وكان العرب يتباهون بها.

كانت تدعى قلعة خيبر أو القَموص [16] Kamoos وقد روى محارب يهودي عجوز بأنهم لو شيّدوا القلعة تماماً حسب آرائه لكانت من القوة بحيث لا يستطيع أي عدو الدّخول إليها وهزيمتهم. وهذه هي تعليماته: «ابنوا القلعة بثمانية أبواب ومدخل واحد؛ والجدران من ثمانية طبقات مربعة الشّكل؛ المدخل من الخامس؛ الثّاني، فالرابع، الثّالث، فالأول، الرّابع فالثاني، الخامس، فالثالث، أما مدخل الجدار السّادس والسّابع والثّامن فلا يتغير».





قلعة خيبَر

لن أدعكم تقفون عاجزين أمام هذه التعليمات العجيبة. فقد روى لي صديق عربي القصة ورسم لي القلعة وها هي ذي أمامكم. إن أردتم أن تجدوا الطّريق إلى بوابة القلعة حيث دافع اليهود عن أنفسهم ستوافقون أنه لا عجب كيف استغرق اقتحام جيش محمّد [17] لها عشرين يوماً. وعندما احتُلّت القلعة، تمّ توزيع الغنائم وذُبح الأسرى بشكل ناجز، وقد أخذ محمّد صفيّة، وهي أرملة زعيم خيبر، إلى خيمته كسبيّة. أما زينب أخت المقاتل الذي قاتل محمّد، وهي من فقدت أخاها وزوجها وأباها في المعركة، فقد حاولت في اليوم التالي قتل محمّد بإرسال لحم شاة مسموم له، ولكن محاولتها للانتقام باءت بالفشل. ويقول المسلمون بأن نجاة النّبي محمّد حدثت بمعجزة.

تمّت هزيمة اليهود بشكل كامل، حيث أن جميع اليهود الذين استطاعوا الهرب من حصار خيبر قد أُرغموا على اعتناق الإسلام ولم تعد لهم أيّة حرية في كل أنحاء جزيرة العرب. وبشكل عام فقد فُرضت عليهم ضريبة قاسية ولم يتم تعويضهم عن الإساءة والقمع، وكان المسلمون ينظرون إليهم بازدراء. حتى في العاصمة صنعاء لم يكن يسمح لهم بحمل الأسلحة أو امتطاء دابة، وتوجّب عليهم العيش في مناطق منفصلة عن المدينة وأن يستخرجوا مياههم من الآبار الخاصة بهم.



عربات المياه التي تُستخدم في عَدَن لجلب الماء من الآبار إلى المدينة

أما في عَدَن ومناطق من جزيرة العرب البريطانية، فقد كان اليهود مرفّهين، ولكن في أي مكان آخر من العالم لم يكن مصيرهم حسناً. كان عدد اليهود آنذاك ربما مئتي ألف نسمة، نصفهم في الوقت الحالي يعيش في اليَمَن أما الباقون فمعظمهم في بغداد والبصرة.

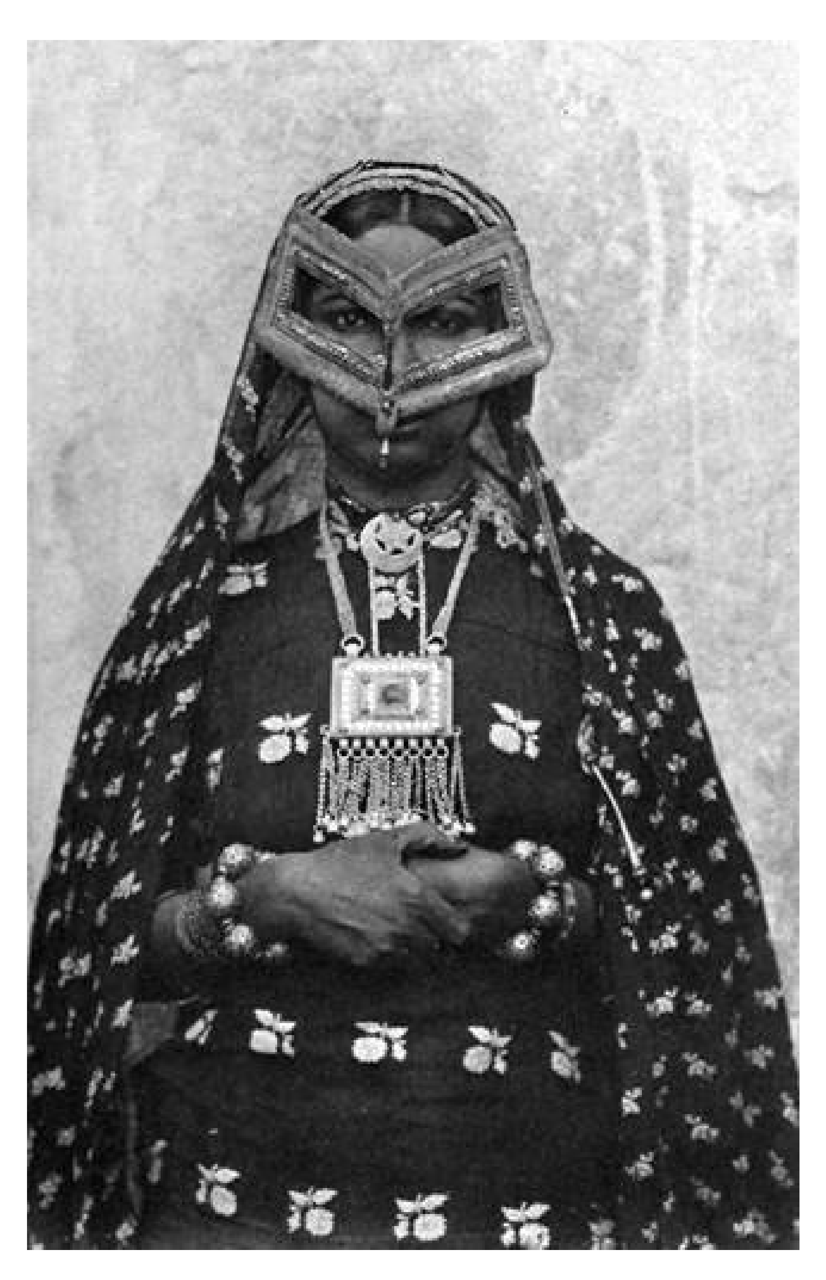
إن المسافر عن طريق السّاحل من عَدَن في طريقه إلى الهند لا بدّ له أن يلتقي باليهود الذين يحاصرون كل قارب بخاري يعبر ويجهدون لبيع بضائعهم، وبيض النَّعام وريش النَّعام والعملات والتُّحف. تستطيع معرفتهم فوراً من عادتهم الخاصة بإطلاق جديلتي شعر أمام آذانهم. إن الكثير من يهود العرب توّاقون للحصول على المال والملذات الدّنيوية ولكن الآخرين يتمسكون بقوة بدينهم ويتطلعون لتأسيس دولتهم إسرائيل [18]. وإنه لممّا يسعدهم دائماً شراء التوراة العبريّة وإرسال أولادهم إلى المدرسة.

صلّوا من أجل هذا الشّعب المنبوذ المرفوض في جزيرة العرب وفي كل مكان، بأن يمكن فعل شيء للخلاص بإرسال المبشِّرين إلى تلك «الخراف الضالّة من بني إسرائيل» [19] التي عاشت لفترة طويلة في خيام إسماعيل!

ربما يريد الإله من أحدكم المجيء وإخبارهم بقصة المسيح الذي يحبهم أكثر مما نفعل لكونه واحداً منهم.

7 - تعاويذ وأشياء أخرى يومية

هل شاهدتم يوماً امرأة أو شابة ترتدي زياً بهذه الغرابة كما هي في الصّورة؟ بالطبع أنتم تعلمون أن المرأة في الإسلام ترتدي الخمار الذي يغطي الوجه، وهو كإطار النّافذة بعد نزع القطع الزّجاجية منه. إنه مصنوع من القماش السّميك ومطرز بخيوط من الذهب أو الفضة، وله قطعة عند الأنف وخيوط ليثبّت حول الرّأس. بالإضافة إلى هذا الوشاح الغريب، يمكنك ملاحظة أنها تلبس ثلاثة أساور في كل ذراع، وبلمحة خلف الوشاح تستطيع رؤية الحلية التي تزيّن أنفها. وبالطبع فهي تضع الحلق والخلخال. أما الجزء الأوضح من حليّها فهو صندوق التمائم الذي يتدلى حول عنقها بسلسلة فضية، وله شرّابات جميلة معلقة في أسفله. كل امرأة تقريباً في بلاد «رأساً على عقب» Topsy Turvy land تضع تميمة. إنهن يلبسنها ليس كحليّ فحسب ولكن لتحميهن من الشّر، وهنّ لا يخرجن من بيوتهن في نزهة إلا وهن يتقلّدنها.



امرأة من قبائل الهضاب، ترتدي الخمار وتضع التّمائم

إن التمائم والتعاويذ لا يلبسها العرب لكي تحميهم وأطفالهم من العين الشّريرة فقط، بل يضعونها فوق أبواب منازلهم ويعلّقونها في أعناق إبلهم وحميرهم وخيولهم ومراكب صيدهم، وهي في الحقيقة موجودة في كل مكان لتبعد عنهم الخطر والموت. أتانا البارحة إلى الكنيسة صبي، وأمه ما تزال مسلمة، وكان مرتدياً حول عنقه مجموعة كبيرة من الأشياء الغريبة: خرز، عظام، بعض من البقايا المقدسة، إلخ، كلها لتحميه من العين الشّريرة.

إنهم في جزيرة العرب يستعملون كل الأشياء كتعاويذ، وهي مبرّرة حسب معتقد بعض مشايخهم: «ليس من الخطأ استعمال التمائم أو التعاويذ ما دُمت لا تشرك مع الله شيئاً» [20]. ومن أكثر الأشياء التي تعوّدنا رؤيتها آيات قرآنية موضوعة في صندوق فضّي؛ وكلمات من القرآن كُتبت على قطعة من الورق وحُفظت في إناء جلدي؛ وأسماء الله أو صفاته التي لا تحصى؛ وأسماء النّبي وصحابته؛ وحجارة ثمينة عليها نقوش أو دون نقوش؛ وخَرَز؛ وعملات قديمة؛ وصور طينية؛ وأنياب حيوانات مفترسة؛ وتراب من أرض مكّة أو كربلاء على شكل مربعات صغيرة، أو بأكياس صغيرة. أما عندما يغيّرون ثوب الكعبة في كل عام، فهو يُقطّع إلى قطع صغيرة تُباع كتعاويذ.

تستعمل نساء مكة التعاويذ ذات القوة الهائلة وتسمى «المشكاش»، ومن المفترض بها أن تعمل على زيادة النّسل. وهذا المشكاش هو نسخة عن القطعة النّقدية البندقيّة التي طُبع على أحد وجهيها صورة دوق ڤينيسيا راكعاً أمام القديس مرقس، وعلى الوجه الآخر صورة السّيد المسيح محاطاً بالنجوم. مع العلم بأن النّساء على جهل تام بنقوش هذه القطعة النّقديّة وطابعها المسيحي.

حسب مبادئ الإسلام، لا يجوز استعمال سوى الآيات القرآنية، ولكن باب الدُّعاء الذي تركه النّبي محمّد للمؤمنين، كما عرفنا من خلال حياته، هو الآن مفتوح على مصراعيه. إن أكثر الآيات المنتقاة من القرآن، والتي تُستعمل كتعاويذ توضع في علب صغيرة، هي من السّور: I، VI، XVIII، XXXVI، XLIV، LV، LXVII، LXXVIII. هناك خمس آيات من القرآن تسمى «آيات الحفظ»، تمثل قوة هائلة للحماية من الشّر. وهي كالتالي: «ولا يؤوده حفظهما»؛ «فاللهُ خيرٌ حافظاً»؛ «يحفظونه من أمر الله»؛ «وحفظناها من كلِّ شيطان رجيم»؛ «وحِفظاً من كلِّ شيطانٍ مارد». تُكتب هذه الآيات بعناية فائقة بحبر خاص من قبل هؤلاء الذين يتعاملون بالتعاويذ ثم يبيعونها بأسعار باهظة لنساء المسلمين وأطفالهم.

والحبر المستعمل في كتابة التعاويذ هو ماء الزّعفران، عصير البصل، ماء من نبع زمزم المقدس، وأحياناً من دم الإنسان. من المهم أن يكون كاتب هذه التعاويذ من رجال الدّين الأتقياء. لقد أخبرتنا الكتب العربية أن «حِمية من يحضر التمائم تعتمد على أسماء الله التي ينوي كتابتها أو سردها. إذا كانت أسماء الله الجبّارة، فعلى كاتبها أن يمتنع عن استعمال اللحم والسّمك والبيض والعسل والمسك. أما إذا كانت أسماء الله الرّحيمة، فعليه الامتناع عن استعمال الزّبد ومنتجات الألبان والخلّ والملح والعنبر».

أما أفضل أنواع التعاويذ فهي المسماة المربّع السّحري وقد رسمتُ لكم واحدة هنا. يعتقد أكثر العرب أن العناصر الرّئيسية للحياة هي أربعة: التراب، والهواء، والنّار، والماء، وتحت هذه الأسماء هناك مربعات، كما ترون، مرقمة من الواحد إلى السّتة عشر، وبأيّة طريقة تجمعون الأعداد إلى الأعلى أو الأسفل أو قطرياً تحصلون على الرّقم 34. جرّبوا ذلك.

EARTH

8	11	14	1
13	2	7	12
3	16	9	6
10	5	4	15

WATER

14	4	1	15
7	9	12	6
11	5	8	10
2	16	13	3

AIR

15	1	4	14
10	8	5	11
6	12	9	7
3	13	16	2

FIRE

1	14	15	4
8	11	10	5
12	7	6	9
13	2	3	16

هذا الاعتقاد سائد بين المسلمين الإماميّة الذين نصادفهم في كل مكان في شرقي جزيرة العرب، وأكثر التعاويذ شيوعاً هي المسماة «نادِ عليّاً» [21]. تحتوي هذه التعاويذ على صحن من الفضة أو الرّصاص، عليه أجراس صغيرة في الوسط، منقوشة بالكتابات التالية:

,Cry aloud to Ali; he is the possessor of wonders"

.From him you will find help from trouble

He takes away very quickly all grief and anxiety

".By the mission of Mohammed and his own sanctity

«نادِ علياً؛ مُظهر العجائب،

تجده عوناً لك في النّوائب.

أدعوك كلّ همّ وغمّ سينجلي

بنبوّتك يا محمّد، بولايتك يا علي».

هناك عدد لا محدود من التعاويذ التي تستعمل للبُرء من الأمراض. ويعتقد الأطباء المحلّيون أنه عندما يفشل الدّواء في معالجة المريض فعليه بكتاب الله، يستعمل إما داخلياً أو خارجياً، فيذهب الألم ويشفى المريض.

إن المستشفيات ودكاكين بيع الكتب والمدارس ستقوم دون شك بإزالة التعاويذ من جزيرة العرب، وإن المسيرة الحضارية بمعجزاتها العلمية الحديثة وروح البحث والاستقصاء، لهي إحدى الوسائل أيضاً. مع ذلك، علمتُ بحالات طُبعت فيها آيات من القرآن وبيعت كتمائم فحاول المرضى حكّ الحبر من الورق المطبوع المستخدم في لف المساحيق في المستشفيات، من أجل شرب المحلول كدواء.

هناك أشياء أخرى في جزيرة العرب عدا عن التعاويذ تدعوك للعجب. أولها الطّريقة التي تُحبك بها سُعف النّخيل بمهارة لعمل سلال السّوق. وعندما تُدهن بالقار من داخلها تصبح كالدلو الأمريكي لتعبئة المياه. أما المكنسة العربية فهي من جرائد النّخيل ذات يد قصيرة، وكذلك الغطاء الذي يوضع فوق الطّبق فيصنع أيضاً من لحاء النّخل والحبال ويُدهن بالألوان، وعندما يحضرون للضيف طبق التمر الحساوي، فإنك تندهش من الغطاء الذي يغلفه ليحميه من الذباب.

أما سلّة الخياطة والمروحة وصنادل النّساء فهي غاية في الأهمّية. إنّ صنادل الرّجال وكذلك النّساء ذوات سير جلدي يمرّ بين الإصبع الكبير للقدم والذي يليه، ويعلق باقي الصّندل بالقدم بطريقة مدهشة. ولأن شباشب النّساء تُصنع من الخشب فإنك تستطيع سماع خطواتهن من بعيد، وأصبح صوت الطّق طق مألوفاً للجميع في أنحاء جزيرة العرب.

ماذا تعتقدون بشأن مفروشاتهم الجميلة؟ هناك طاولات صغيرة تستخدم لحمل أباريق المياه وصواني الطّعام، وهناك حوامل مصنوعة من قطعة واحدة من الخشب المتين وبطريقة ذكية تمكنك من ثنيها لتأخذها معك في نزهة. هناك أيضاً حوامل أكبر مصنوعة من أغصان النّخيل وهي متينة بشكل كافٍ لحمل مجلد كبير من القرآن. يحب العرب أن يتأرجحوا جيئة وذهاباً وهم يتغنون بسور القرآن. وأخيراً يوجد شيء يشبه إلى حدّ بعيد التعويذة، وهو حقيبة المسافر التي تحمل الخبز والتمر، وتشد غالباً إلى سرج الجمل بسيور جلدية. يبقى فيها الخبز والتمر طرياً لساعات طوال في المناخ الحارّ والجاف في جزيرة العرب.

إنّ العرب ليسوا ماهرين بالأدوات كاليابانيين أو الصّينيين، وليس لديهم صناعة من أي نوع، ولكن لا بدّ لك من أن تعترف بأن أشياءهم اليومية فنية في معظمها ويُعدّ بعضها جميلاً حقاً.

8 - أروع حجر في العالم

لقد كُتبت الوصايا العشر على لوحين من الحجر ولكن الأصل قد ضاع؛ وقد احتفظ النّبي هارون باثني عشر من الأحجار المكرّمة عندما ذهب إلى الأرض المقدسة ليتعبّد؛ وقد وضع يعقوب حجراً كوسادة عندما هرب من أخيه، ولكن لم يجد أحد هذه الذكرى. إنّ الكثير من الأحجار المكرّمة تُعد مقدسة لما لها من تاريخ هام. وإن عبادة الأصنام هي واحدة من أقدم العبادات في التاريخ، وكمثال على ذلك نذكر حجر الكاهن Druid في إنكلترا حيث كان الأساقفة يقدّمون القرابين أثناء تعبدهم وحيث أريقت الدّماء البشرية باسم الدّين.

وصخرة پلايموث Playmouth هي أيضاً مشهورة في التاريخ، فهي تحدّد المكان الذي حط الحجاج الأوائل رحالهم فيه عام 1620. وهناك أيضاً حجارة ثمينة لها تاريخ متميز أزهقت من أجلها الأرواح والأموال، ولا أحد يستطيع نسيان الحصى التي وجدها داوود في السّاقية والتي كانت سلاحه والسّبب في انتصاره العظيم على جالوت.

ولكن أروع حجر في العالم اليوم ليس واحداً مما ذكرته لكم. بل هو الحجر الأسود في المعبد القديم في شبه جزيرة العرب، والذي هو الآن مركز العبادة عند المسلمين.



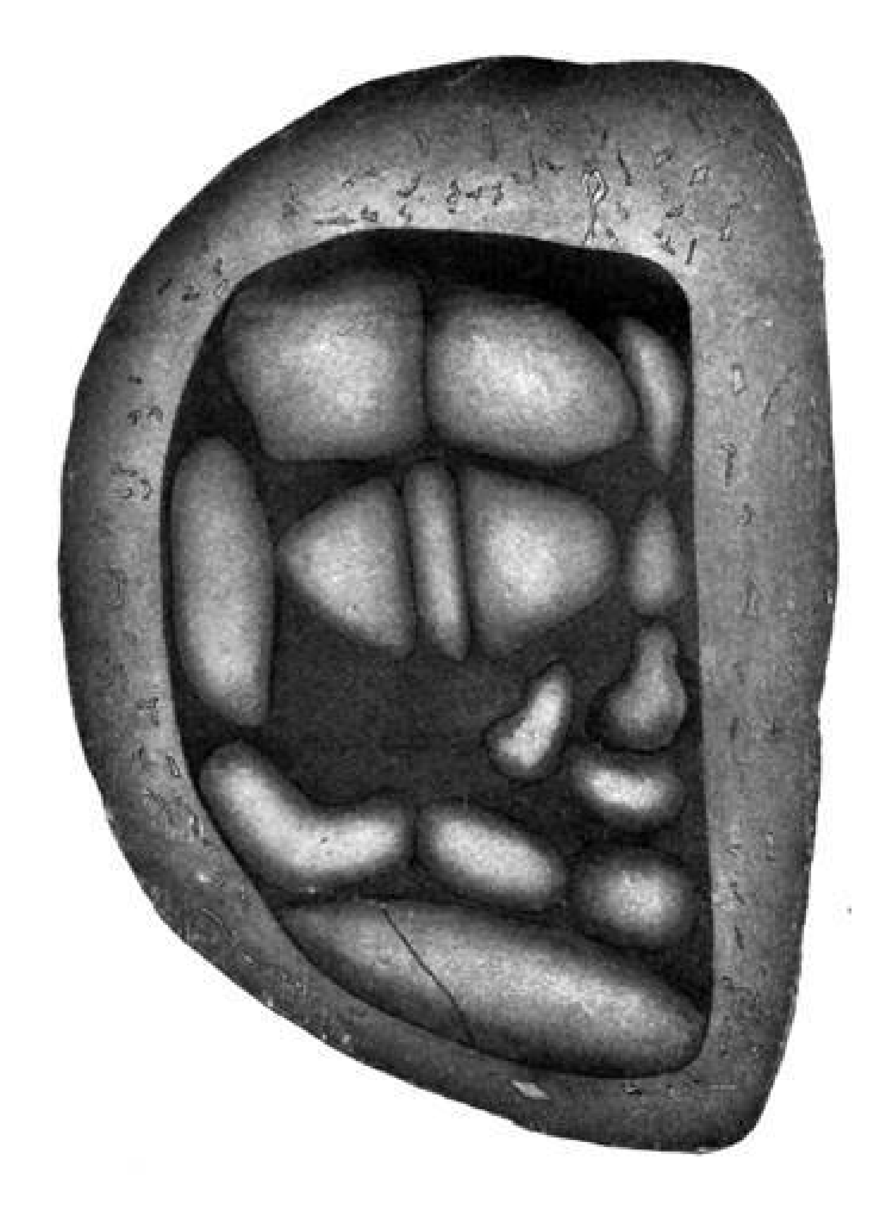
بعض حوائج الحياة اليوميّة في جزيرة العرب

كانت أكثر القبائل العربية في ذلك الحين تتّخذ إلهاً أو صنماً خاصاً بها، وكانت هذه الأصنام في معظم الأحيان عبارة عن صخور أو أشجار عجيبة في منطقتهم، وكانوا يقيمون الأضرحة حولها ويحوّلونها إلى مكان للحجّ. مع ذلك، ومنذ زمن بعيد، فثمّة رمز وحيد تنظر إليه جميع الأعراق على أنه مقدّس بشكل خاص، ألا وهو الكعبة، أو الحجر المقدس في مكة. من المرجح أن يكون هذا الحجر شهاباً هبط من الجنة على مرأى من المشاهدين وأصبح كرامة مبجّلة. كما هو الحال عند الإغريق في قصة «ديانا الأفسُسيّة» Diana of Ephesus عندما أصبح الحجر هو مركز العبادة في التاريخ الإغريقي. كانت القبيلة التي ينتمي إليها محمّد [22] تحتل لأجيال عديدة منصب سدانة هذا المقام المحلي العظيم، لحثّ النّاس على الحج إلى الكعبة. ومن ذلك المصدر حصلت العائلات الثّرية في مكة على جزء كبير من أموالها. كانوا يقبلون بإنصاف كل أشكال

الأصنام التي تتخذها القبائل المختلفة من أنحاء جزيرة العرب ليشعر كل إنسان وكأنه في بيته عندما يأتي لأداء مناسك عبادته.

عندما أتمّ النّبي محمّد شؤون دعوة الدّين الإسلامي، دمّر جميع الأصنام والآلهة والأحجار ما عدا الحجر الأسود لما له من خاصية قدسية، ومن أجل ذلك ترك توجيهات دقيقة لأتباعه. وكان هذا كان استثناءً لدى النّبي الذي كانت أسس عقيدته تقوم على «لا إله إلا الله». ومن أهداف الحجّ تقديس المسجد والكعبة. وحسب ما أورده الكتّاب العرب فإنّ آدم هو من بنى الكعبة تماماً تحت عرش الله في الجنة. وهي بناء مستطيل في وسط المسجد، مكسو بالقماش الأسود وبداخله الحجر الأسود المطهّر الذي هبط من الجنة بلون أبيض كالثلج، ولكنه تحوّل إلى اللون الأسود بسبب ذنوب البشر.

إنّ الحجر الأسود موضوع في زاوية الجهة الجنوبية الشّرقية من الكعبة، وهو مرتفع إلى علو خمسة أقدام عن الأرض. وهو على الأرجح نيزك أسود مرقش ببقع فاتحة هبطت كنجم ساقط من السّماء. وبعد وفاة النّبي محمّد [23] بعدّة سنوات سُرق الحجر الأسود من قبل بعض الفرق الدّينيّة في ساحل الخليج العربي، وتم نقله إلى صحراء القطيف؛ وعندما أُعيد ثانية بعد رحلة طويلة وقع من على ظهر الجمل وانكسر، والآن ترى عرقاً من الفضة يرأب الصّدع الذي أصابه وهو مُدغم في جدار الكعبة.



الحجر الأسود في مكّة

من الضروري لكلّ مسلم أن يزور الكعبة مرّة في العمر. وعندما يقترب هؤلاء الحجاج من المدينة المقدسة بمسافة قصيرة، لا بدّ لهم من أن يخلعوا ملابسهم اليومية ويلبسوا زي الحجّ المؤلف من قطعتين من القماش الأبيض، واحدة تحيط بالخصر، والأخرى تُرمى فوق الكتف، تحت الذراع، لتترك الكتف الآخر عارياً. يُسمح للحجّاج بلبس الصّنادل وليس الأحذية. وبهذا اللباس يذهب كل حاجّ بدوره إلى بئر زمزم ليغتسل بملء دلو من الماء ويشرب بقدر ما يريد. ثم يدخل من «باب السّلام» ويقبّل أروع حجر في العالم، ويدور حول الكعبة سبع مرات، وفي كل مرة يمرّ بالحجر الأسود يربت عليه بيده أو يقبّله. بعد ذلك يتلو كل الحجّاج المسلمين الصّلوات والأدعية نفسها وينسحبون.

في اليوم التالي، يقوم هؤلاء الذين يسعون لنيل الجنة من خلال دين النّبي محمّد، بممارسة أمور أخرى. فعليهم زيارة المكان الذي يفترض أن يكون النّبي إبراهيم قد وقف فيه عندما أعاد بناء الكعبة، ثم السّعي بين الصّفا والمَروة، وهما هضبتان صغيرتان بالقرب من مكة، وإتمام أشياء أخرى حتى اليوم السّادس، حيث يجتمع جميع الحجّاج حول الكعبة كما في اليوم الأول. ويأتي الخطيب في اليوم السّابع ليتلو الخطبة من على المنبر في وسط المبنى، وهو يحثّ جميع الحاضرين على المحافظة على دينهم ونشره بين الأمم. إنه بالفعل جمعٌ كبير هذا الآتي إلى مكة. يسافر بين سبعين إلى ثمانين ألف شخص كل سنة لزيارة مكة من جميع أنحاء العالم الإسلامي: من أوروبا، وآسيا، وأفريقيا، والجزر البحرية. وبعد الخطبة يمضون يومين أو أكثر في زيارة الأماكن المقدّسة حول مكة حتى يأتي اليوم الأعظم الذي يحتفل به كل العالم الإسلامي، وهو «عيد الأضحى».

على الرّغم من أن المسلمين ينكرون موت السّيد المسيح والحاجة إلى التكفير عن الخطايا، فمن الغريب أن هذا الاحتفال العظيم هو من أجل التضحية كما في أيام اليهود القدامى. يأخذ كل مؤمن مخلص معزاة أو شاة أو جملاً ويوجهها إلى الكعبة ويضع سكينه في عنقها وهو يكبّر: «لا إله إلى الله، محمّد رسول الله». بعد إتمام الذبح، يُسمح للحاج بحلق لحيته وتقليم أظافره وارتداء ثيابه المعتادة، وكل تلك الأمور كانت محرّمة خلال عشرة أيام الحجّ. ويُعطى شهادة بأنه قد أنهى الحج وهو جاهز الآن لدخول الجنة أو شيئاً من هذا القبيل [24].

إن معظم الحجّاج العائدين من مكة لا يتمتّعون بصحّة جيدة، فهذا التجمّع الكبير مركز لتفشي الأمراض السّارية مثل الكوليرا والطّاعون، التي تتسبّب بموت الكثيرين، بالإضافة إلى كونها ملتقى لسائر صنوف النّاس، الصّالح منهم والطّالح.

على الرّغم من أن بعض الرّحّالين قد زاروا مكّة، فقد تظاهروا بأنهم مسلمون ليحافظوا على حياتهم، إذ أن المدينة المقدّسة محرمة على المسيحيين فلا يستطيعون دخولها. وأول أوروبي دخل مكة كان بحاراً انكليزياً يدعى «جوزيف پِتس» Joseph Pitts، ألقي القبض عليه في الجزائر وأُخذ إلى مكّة عنوة ليعلن إسلامه، ثم فرّ إلى إنكلترا ليدوّن كتاباً يتناول فيه ما شاهده.

لقد بدأت الحكومة التركية بإنشاء سكة حديدية تربط بين دمشق والمدينة ومكّة وستنتهي قريباً، ومن يستطيع القول بأنها لن تُفتح لاستقبال الكتاب المقدّس [25]؟ وإن قاطرة أمريكية كبيرة ستنفث بخارها قريباً قرب الكعبة، قريباً من أروع حجر في العالم.

9 - نبي الإسلام محمّد (راكب الهجن) إذا استطاع أحد أن يمرّر أولاد الأرض جميعاً بملف واحد ويأخذ أسماءهم واحداً واحداً، لوجد أن الكثيرين منهم يحملون الاسم ذاته. جون، هنري، كارل، هانز، سيكونون بالآلاف بكل تأكيد، ولكن لا يوجد أبداً اسم متداول بكثرة كاسم محمّد. وإنه من المؤكد بل أستطيع الجزم بأن الأولاد والرّجال حول العالم الذين يحملون هذا الاسم هم فوق الخمسة ملايين.

مع ذلك إنني أتعجب، كم منكم يعرف مَن كان محمّد؟ أين عاش وأين توفي، ولماذا يتمتّع بهذه الشّهرة العالمية؟ لقد كان يتيماً فقيراً، مات أبوه قبل ولادته، ثم ماتت أمه بعد ذلك بعدة سنوات، وبالرغم من حرمانه وكونه يعيش في منطقة نائية من جزيرة العرب فقد كان أقرباؤه يعيشون في مكة وهم يملكون المال والنّفوذ، وهم الذين ساعدوه وأحسنوا إليه. ولد محمّد عام 570 م، أي حوالي قبل ألف سنة من اكتشاف كولومبوس لأميركا. وكانت أمه تدعى «آمنة» بمعنى المؤمنة [26].

هناك قصص غريبة تروى حول نشأته عندما كان صبياً. إحدى هذه القصص أنه عندما كان مع أخيه من الرّضاعة في الصّحراء التي ترعرع بها واشتد عوده مع القبائل وشرب من حليب إبلها، جاءه رجلان بلباس أبيض وطرحاه أرضاً، ثم فتحوا صدره واستخرجوا قلبه من بين ضلوعه واستأصلوا مضغة دم سوداء، ثم أعادوا القلب إلى مكانه وأغلقوا الجرح. يعتقد العرب أن هذه المضغة السّوداء هي الخطيئة، اجتُثّت فأصبح طاهراً. كفتى، كان محمّد ودوداً وذا خلق قويم، فلذلك استحق لقب «الأمين» بالرغم من أن النّاس في مكة في فترة طفولته كانوا على أسوأ حال من عبادة الأصنام، ولم يجد حوله ما يدله على الطّريق السّوي.

عندما بلغ الثّانية عشرة من عمره، أخذه عمّه أبو طالب في رحلة إلى الشام حتى وصلا إلى «بُصرى»، وهي مدينة ذُكرت في الإنجيل وليست «البَصرة» التي في الخليج العربي. طالت هذه الرّحلة لعدة شهور وفي هذه الفترة التقى محمّد براهب مسيحي نصح عمّه أبا طالب بحسن رعايته لما ينتظره من مجد عظيم.

كان محمّد في هذه الرّحلة يلتقي للمرة الأولى مع المسيحيين وكان مندهشاً بالتعاليم المسيحية والاجتماعية، ولأنه كان ذكياً، استطاع المقارنة بكل

سهولة بين هذه التعاليم وتقاليد أمته، حتى عاد من هذه الرّحلة وهو كارهٌ لعبادة الأصنام وسلوك مجتمعه البغيض. منذ ذلك الحين وحتى عمر العشرين، عاش محمّد بطريقة غير مألوفة عن أترابه، يرعى الماشية في هضاب مكة وأوديتها، وكان أميناً، طاهراً، صادقاً[27] على عكس بقية البشر المحيطين به حتى أطلقوا عليه كما أخبرتكم لقب «الأمين» أي «المؤمن».

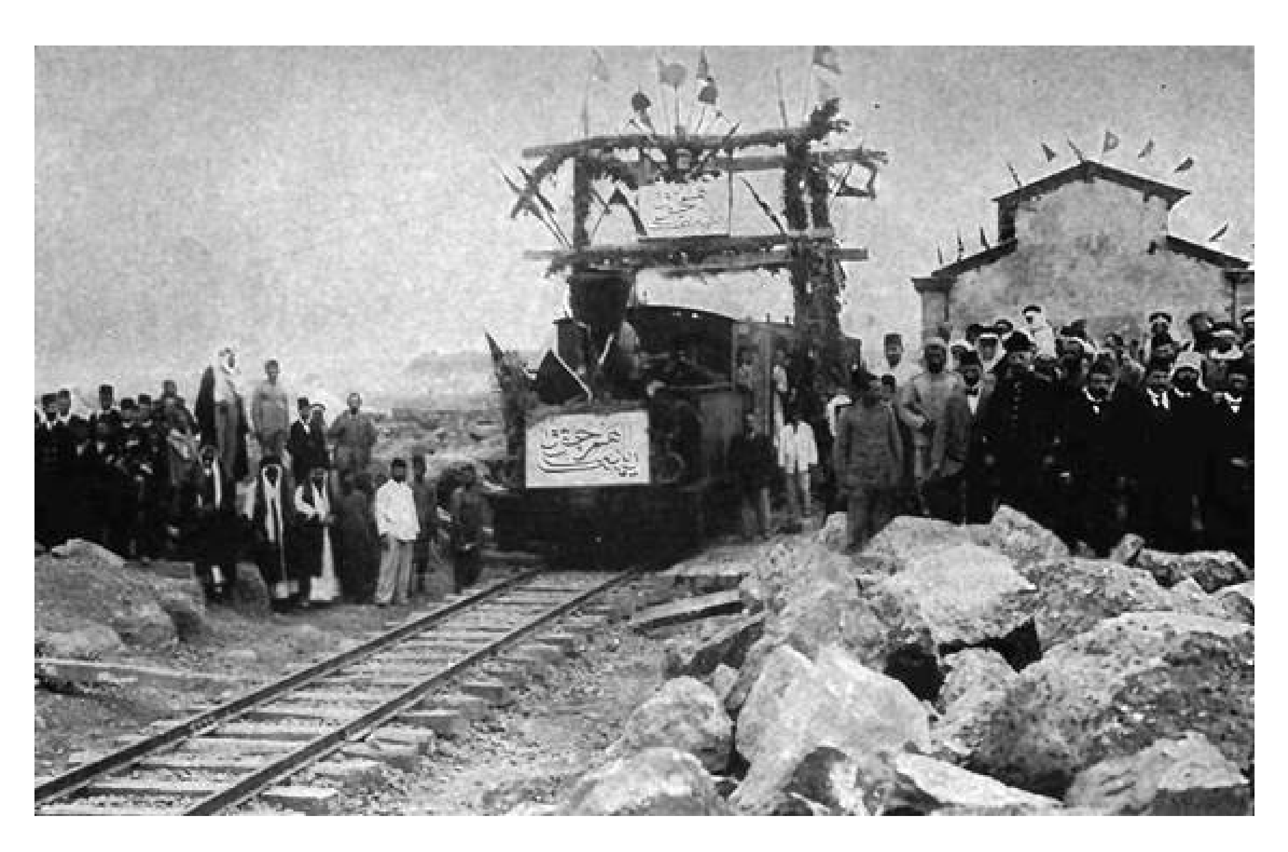
وفي هذه المرحلة حارب مع عمّه ضد القبائل الأخرى حيث اشترك في ذلك مرتين. وعندما بلغ الخامسة والعشرين، اقترح عليه عمّه أن يأخذ تجارة بمفرده تخص سيدة ثرية تعيش في مكة وتتاجر بالبضائع من مكة إلى الشام ونواحي أخرى من جزيرة العرب. وفي هذه الرّحلة أيضاً التقى مع المسيحيين واليهود وكان شديد الملاحظة كيف أن الأديان جميعها تتصارع حول فكرة واحدة، ولذلك ارتأى [28] أن يعتنق مذهباً آخر بين الاثنين لأن الدّيانتين كلتيهما كانتا على حق، والذي هو أساسه عبادة الله الواحد.

عند عودته، تزوّج محمّد من خديجة التي كان يرعى تجارتها على ظهر الإبل، وقام برحلات متعرجة عديدة ليبيع ويبادل البضائع المختلفة لها. وبعد زواجه عاش سعيداً، كما علمنا، حتى عمر الأربعين عندما أصبحت تتنزّل عليه الرّؤى المختلفة وأيقن بأن الله قد اختاره ليكون نبياً. هنالك آيات عديدة من القرآن تحدثنا أن محمّداً كان في هذه الفترة يدعو قومه إلى ترك عبادة الأصنام وعبادة الله الواحد، ولكنهم كانوا يغضبون ويحاولون قتله لولا أنه توارى عنهم.

رُزق محمّد وخديجة بستة أطفال، ولكن أغلبهم توفي عندما كان طفلاً. وعندما كبرت ابنته فاطمة، تزوّجت بابن عمه وأخيه بالتبني علي. واسمها يتمتّع بشعبية كبيرة وذات شأن عند المسلمين.

كانت الرّؤى تراود محمّداً كل حين، وأحياناً يمضي وقتاً طويلاً دون وحي. لكنه كان مقتنعاً كل الاقتناع وكان يخبر أصحابه بالرؤى التي يراها وبدؤوا هم أيضاً يعتقدون بأنه نبي الله. وكانت عائلته أول من آمن به وبدينه. أراد إبعاد الأصنام من الكعبة في مكة ووعظ النّاس بترك عبادتها، ولكن القائمين على خدمة الكعبة غضبوا وحاكموه على هذه الأفعال، وعندما وصل الاضطهاد حداً كبيراً، قال لهم بأنه رأى في المنام أنهم يستطيعون الاستبقاء على بعض الأصنام المهمّة والمحببة إليهم. لكنه بعد عدة أيام شعر بالندم على هذا التساهل وقال لهم بأنه ارتكب خطأً وعليهم الاستغناء عن جميع أصنامهم وتحطيمها وعبادة إله واحد، فأصبحوا يعاملونه معاملة سيئة وكانوا سيقتلونه لولا أنه هاجر إلى المدينة.

ظلت القبائل تلاحقه حتى وصل إلى مغارة، وعندما دخل النّبي [29] جاءت يمامات وجلست على حافة الغار، ونسجت العنكبوت شبكتها عند مدخله. عندما وصل المطاردون نظروا وقالوا: «لا يمكن أن يكون محمّد داخل هذه الغار، ألا ترون اليمام وخيوط العنكبوت»! وبذلك أنقذ الله حياة محمّد. عادت هذه الجموع من حيث أتت وخرج محمّد إلى المدينة. وهنالك ازدهرت ديانته ورأى رؤيا تدل على النّفوذ الذي قد يصل إليه لينقذ قومه من عبادة الأصنام ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد. أخذ محمّد يدعو إلى الدّين الجديد هنا وهناك ويعلّم أصحابه التعاليم التي أوصاه بها الملك جبريل في رؤاه. وبسرعة أصبح أتباعه كثر، وبات يتمتع بالقوة والجرأة الكبيرتين حتى جهز جيشاً من أجل الفتح الإسلامي الكبير وحارب من يأبى الدّخول في الدّين الجديد.



عندما يعود العرب من الحجّ، يحمّلون متاعهم على الجميل المسكين الصّبور

وهكذا أصبح راكب الإبل نبياً عظيماً. والآن يُذكر اسمه خمس مرات من على مآذن المساجد في آسيا الوسطى وعلى طول شاطئ البحر المتوسط وفي قلب أفريقيا وفي الهند وجزر البحر بالإضافة إلى جزيرة العرب وبلاد فارس والإمبراطورية التركية. وإذا رغبتم بإعادة هذه الجموع إلى المسيحية أو

اليهودية [30] فعليكم بمرافقة المؤذن قبل الفجر لكي تصلّوا وتدعوا النّاس للصلاة، وتعملوا جادّين لكي يكون لهذه الطّفولة القادمة فرصة للتعرف إلى ديننا ودين المخلِّص الذي علّمنا الكثير.

.Hark !‘Tis the muezzin’s cry; Pray, children, pray; Moslems in darkness lie, Pray, children, pray"

".Thousands in bondage die; O hear, while moments fly, Yours is a calling high: Pray, children, pray

«أنصت، إنها صيحة المؤذن؛

صلُّوا يا أطفال صلُّوا؛

يمكث المسلمون في الدّياجير،

صلُّوا يا أطفال صلُّوا؛

يموت الآلاف تحت العبودية؛

اسمع، بينما اللحظات تمضي،

صوتك يصيح عالياً: صلُّوا يا أطفال صلُّوا».

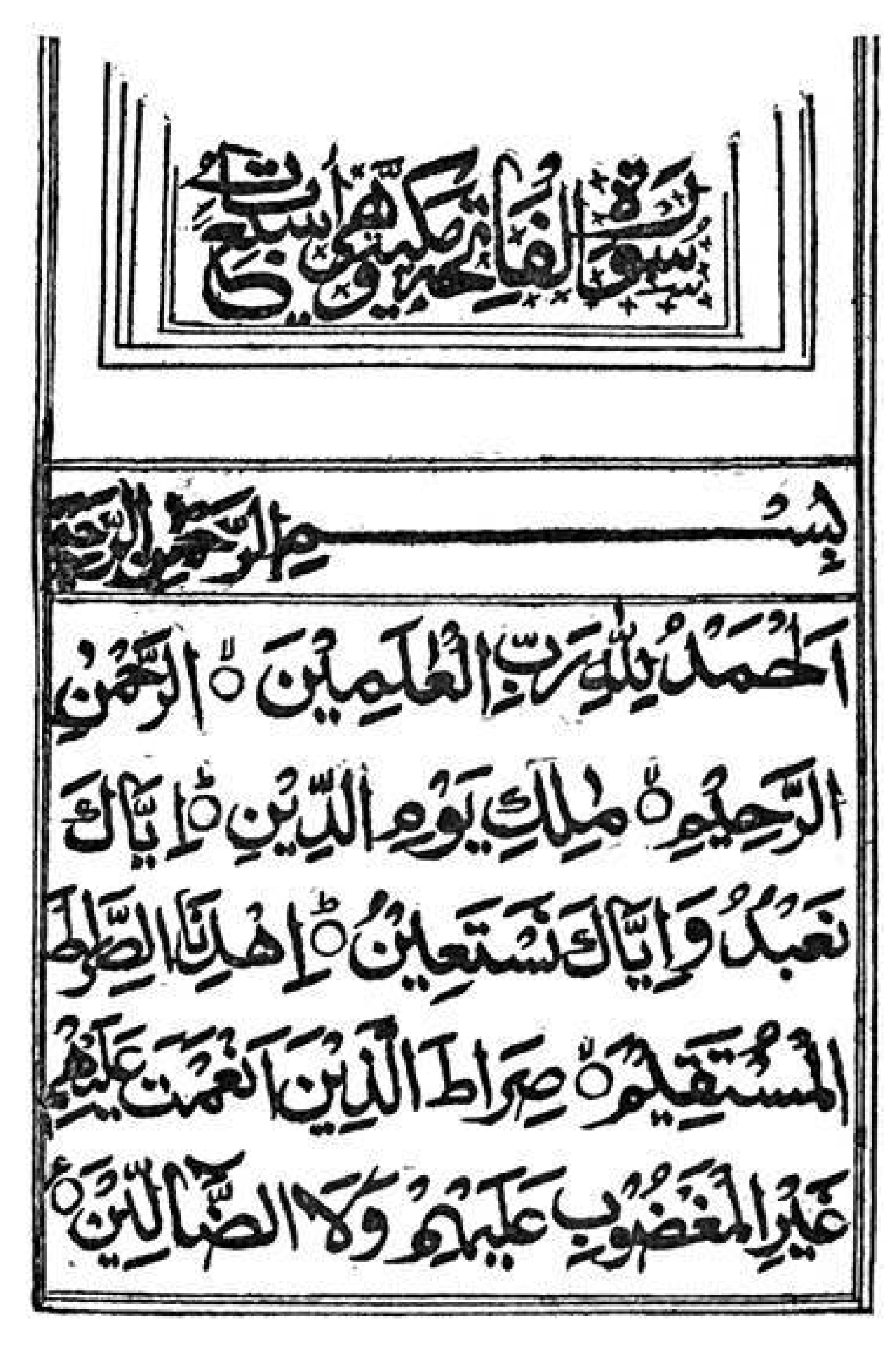
10 - لغة الملائكة

يفتخر العرب بعرقهم النّبيل. وهم يفتخرون بحرّيتهم وتقاليد صحرائهم ذات الهواء الطّلق. يفتخرون بدينهم ونبيّهم، ويفتخرون بتاريخهم وبأعراقهم الأصيلة. وفوق ذلك كلّه هم فخورون بلغتهم العربية، إحدى أقدم لغات العالم وأحسن أشكال الخطاب الإنساني. وإن محمّداً نفسه يقول عن لغة القرآن، وهو كتاب المسلمين المقدس، إنها «لغة الملائكة». يعتقد العرب ونبيهم أن آدم وحوّاء كانا يتحدثان العربية في الجنّة وأن الله، عندما كلّم أنبياءه إبراهيم وموسى وسُليمان، لا بُدّ أنه كلّمهم بلغة الصّحراء، لغة العرب.

قال أحد الحكماء الذي عاش بعد النّبي محمّد بثلاثمئة عام: «إن من حكمة الله أنّه أعطى العقل للغرب واليدين للصينيين واللسان للعرب». ومعنى كلام هذا الفيلسوف العربي أن الأوروپيين متميزون بالقدرة على الاختراع والاكتشاف، والصّينيين متميزون بالأعمال اليدوية والفنية، بينما يتميز العرب بأنهم قد وُلدوا كخطباء وشعراء. كان يقصد أن شعوب أوروپا تملك قدرات فكرية، وتملك شعوب الشّرق المهارة الحرفية، بينما يملك العرب الفصاحة. إذا قرأتم سِفر أيوب Job، الذي هو بدون شك قد كُتب في جزيرة العرب ويصف حياة العرب القديمة، أو إذا قرأتم الأجزاء الأخيرة من القرآن أو الشّعر العربي، فإنكم ستلمسون حقيقة هذا القول وروعته.

إن أول ما يلفت النّظر في هذه اللغة هو مساحة انتشارها. فهي، كاللغة الإنكليزية، قد انتشرت على كل خارطة العالم وإلى أبعد من حدودها الأصلية، وهي، كاللغة الإنكليزية، انتقلت بواسطة التجارة والفتوحات، أي من خلال التجّار والدّعاة.

منذ القديم، أقرّت إحدى الشّركات الأميركية لصناعة الآلات الكاتبة، أثناء قيامها بالدعاية لآلة ذات مواصفات عربيّة، أن الأبجدية العربية يستعملها النّاس أكثر من أيّة أبجدية أخرى في العالم. قد يظن أحدهم بأن هذا الكلام فيه بعض المبالغة، فيسأل أحد الأساتذة المختصين باللغات «أهي كذبة كبيرة أم لا؟». فيجيب: «بل إنه كلام صحيح». إن عدد الأشخاص الذين يستعملون الأحرف العربية «أ - ب - ج» أكثر بكثير من الأشخاص الذين يستعملون الأحرف اللاتينية أو الصّينية. إن القرآن العربي يُقرأ في المدارس لا في جزيرة العرب فحسب بل في تركية وأفغانستان وبلاد فارس وجاوة وسومطرة وشمال أفريقيا وفي أنحاء آسيا الوسطى. وفي الفيليپين هناك ثلاثمئة ألف مسلم ممّن يستخدمون الأبجدية العربية، وإذا اتجهتم غرباً نحو بلاد المغرب العربي ترون اللغة العربية قد انتشرت وأصبحت لغة القانون والتجارة والدّين.



سورة الفاتحة مكية وهي سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العلمين ۝ الرحمن
الرحيم ۝ ملك يوم الدين ۝ اياك
نعبد واياك نستعين ۝ اهدنا الصراط
المستقيم ۝ صراط الذين انعمت عليهم
غير المغضوب عليهم ولا الضالين ۝

فاتحة القرآن الكريم

خلال غزواتهم، اجتاز العرب المضيق الذي يفصل بين أفريقيا وإسپانيا واستولوا على هذه البلاد وتركوا بعضاً من لغتهم هناك. لذلك فإن العديد من الأماكن في إسپانيا ذات أسماء عربية، فعلى سبيل المثال Gibraltar هو أحد الكلمات المحرّفة لاسم «جبل طارق»، وطارق هو القائد العربي الذي كان أول من عبر وجنوده هذه البقاع. واسم Quadiliquiver، أحد أنهار إسپانيا، هو بالتأكيد الوادي الكبير، أو النّهر الكبير.

حتى اللغة الإنكليزية فيها عدد من الكلمات التي أتت كضيوف عرب إلى مأدبة العقل وانضمت إلى عائلتنا وأضيفت إلى قاموسنا. فعندما تقول: Algebra, ciphers, zero, alchemy, alcove, minaret, alcohol, coffee, sofa, amber, artichokes, gazelles, magazine..

... فإنك تستعمل كلمات عربية يفهمها جميع العرب. لكن استخدام هذه الكلمات لهو مختلف جداً عن التحدّث بلغة الملائكة بشكل سليم. وإنه لمن الأسهل أن تستعير أدوات النّجار من أن تكتسب مهارته لتبني بيتاً. لقد استعارت لغات عديدة الكثير من الألفاظ العربية، واستعار العرب بدورهم من اللغات الأخرى، ولكن مع ذلك تبقى العربية من أغنى اللغات في العالم بعدد كلماتها.

هل ترغبون بمعرفة الطّريقة التي يتكلم بها الأولاد والبنات في جزيرة العرب؟ إذا قرأتم كتاب "Topsy Turvy land" تستطيعون أن تتذكروا الطّريقة التي يكتبون بها الكلمات بشكل مقلوب ويبدؤون بقراءة ما ندعوه بخاتمة الكتاب. وإن كلامهم، ككتابتهم، يبدو أولاً أنه مقلوب رأساً على عقب. بالطبع، لا داعي لإخباركم كم يحبّون الكلام، إذ يشبهون بذلك أولاد وبنات أميركا. وبما أنهم يتكلمون لغة تختلف عن اللغة الإنكليزية، فأنا على يقين بأنكم لا تودّون سماع الكثير. إن اللغة العربية من أقدم وأجمل اللغات. فيها عدد كبير من الكلمات لدرجة أن مُعجمها يسمّى «القاموس» الذي يعني «المُحيط». وهناك خمسمئة اسم للأسد ومئتا اسم للثعبان وأكثر من ألف اسم للسيف وثمانون اسماً مختلفاً للعسل.

وكالإنكليزية، فإن للعربية قواعد صعبة فيها الكثير من الشّواذات. وكما الحال عندكم أيها الأطفال فإن الطّفل العربي يكره القواعد. وهم يعانون دائماً من الأبجدية لأن كل حرف يكتب بثلاثة أشكال: في أول أو وسط أو آخر الكلمة. وهناك خمس عشرة طريقة لتصريف الفعل وعشرون طريقة مختلفة للجمع، عدا عن باقي التصاريف والأزمنة والأفعال الشّاذة.

يعتقد البعض أن اللغة العربية أصعب لغة في العالم، ويقول المبشّر كيث فالكونر [31] Keith Falconer الذي كان أول مبشّر في جزيرة العرب: «ينبغي تقييد قواعد اللغة العربية لأن المتعلمين الجدد كثيراً ما يصطدمون بها». ويقول مبشّر آخر بأنه من الأسهل لك عبور أفريقيا من الإسكندرية إلى رأس الرّجاء الصّالح على أن تتقن قواعد اللغة العربية.

لن أنسى معاناتي الأولى مع اللغة، ولا المكان الذي جلستُ فيه أتلقى درسي على يد الدّكتور كورنيليوس ڤانديك [32] Dr. Cornelius Van Dyke الذي كان ضليعاً باللغة العربية، وبالتعاون مع الدّكتور إيلاي سميث [33] Dr. Eli Smith،

ترجم الكتاب المقدس بكامله إلى العربية. هناك في الظل على شرفة منزله في بيروت بسوريا [34] بدأت أتعلم قواعد اللغة العربية وأفعالها الشّاذة. لا بدّ أن البالغ بالعمر يستغرق وقتاً أطول وأصعب من الصّغار في تعلم لغة جديدة، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لأولاد وبنات العرب.

وبالإضافة إلى كلام الكبار، هناك كلام الأطفال الذي تعلّمه الأمهات لأطفالهن السّمر الصّغار قبل أن يخرجوا من أكواخ الحصير وخيام وبر الجمل إلى العالم الخارجي. نعم، هناك أيضاً لغة عامية يستعملها رعاة الإبل وراكبو الحمير بعضهم مع بعض.

يشبه كلام الأطفال الإنكليزية إلى حد بعيد: فالأب هو بابا baba؛ والكلب وَو وَو wowwow؛ والجميل نونو noonoo؛ وقِف توتو tootoo؛ والدّجاجة كوكو kookoo، وعندما يقع الطّفل يقولون: باف baff!

إن لغة هؤلاء الأطفال الصّغار وكلام الكبار فيه شيء من الشّعر. فالعرب يعيشون في الصّحراء وينظرون إلى السّماء الزّرقاء ويستمتعون برؤية الأفق حيث ترسم الخيالات أجمل الصّور، لذلك يتمتعون بمخيلة واسعة وبجو من الشّعر. إنهم يعشقون البلاغة في الكلام والأمثال والأقوال الجميلة وأشكال مختلفة للكلام.

إن للبعوض لسعة فقط في نيوجرسي، أما في جزيرة العرب فإنهم يدعونه «أبو فاس»! وفي أمريكا الصّعلوك هو صعلوك، أما هنا فيسمى «ابن الشّارع». ولا أجمل من تسمية الصّدى «ببنت الجبل»! هناك قصة سحرية كاملة لكل كلمة! وإذا فتّشت في قاموس اللغة العربية ترى الكثير من القصص المغلقة التي تنتظر فتحها.

في شمال جزيرة العرب، عندما يريدون سؤالك «كيف أنت» يقولون: «وش لون حالك»؟ (ما هو لون حالك) قد ترى في ذلك نوعاً من الفلسفة ولكنها لا تعني شيئاً بالإنكليزية. نبتة التّوت الفرنسي (الفراولة) يدعونها «التوت الفرنجي»، أما الاسم الذي أطلقوه على البطاطس عندما أتت إلى البحرين فهو «علي ولّم» aliyeywellam ولا أعلم لماذا سمّيت هكذا [35]! وأين تستطيع إيجاد أجمل من اسم «أم الخبائث» للخمر أي «أم الخطايا»! ليس من الغريب أن جميع الأطفال العرب ملتزمون بالامتناع عن الخمر. وستتعلمون المزيد عن الليالي العربية عندما تعلمون أن ابن آوى اسمه «ابن العواء»!

إن لغة الملائكة ليست جميعها جميلة ورائعة ولكنها، للأسف، تخبئ وراءها أشياء وأشياء [36]. لقد عمل المبشّرون في مصر وسوريا على تنقية لغة

العرب بإعطائهم الكتب والنّصوص المسيحية والإنجيل بلغتهم الأم. وأولاد العرب في المدارس التبشيرية ينشدون التراتيل المسيحية، وإن العديد من القصص التي تحبون سماعها من أمثال: «بن حور» [37] "Ben Hur" و«الجمال الأسود» "Black Beauty" و«روبنسون كروزو» "Robinson Crusoe"، قد تُرجمت إلى العربية. وهناك أكثر من خمسة وعشرين مليون صفحة من الكتب المسيحية تُطبع كل سنة في مطابع بيروت.

11 - اللآلئ وصيّادوها

إنّ جميع السّفن الإنكليزية - الهندية تقريباً خلال رحلاتها المتعرّجة إلى الخليج العربي، تعرّج أولاً على الشّاطئ العربي ثم إلى الطّرف الفارسي، وتقف عند جزر اللؤلؤ في البحرين التي تقع في منتصف الطّريق بين الخليج وجزيرة العرب على بعد ثلاثين ميلاً عنها. لقد حظيت هذه الجزر بشهرة كبيرة منذ قرون عدّة لأنها من أهم أماكن صيد اللؤلؤ. ومنذ ألفي سنة على الأقل يغوص العرب في هذه المياه لجلب أصداف اللؤلؤ الثمينة. وقبل أيام المسيح وحتى قبل عهد سُليمان، كانت اللآلئ تُنقل من البحرين إلى الغرب. ومن المحتمل أن تكون الأزياء والمحادثات بين الذين يعملون بهذه المهنة ما زالت على حالها منذ ألف سنة. ولعلّ القوارب ما زالت على الطّراز نفسه مع بعض التطوير البسيط.

البحرين كلمة عربية تعني «زوجاً من البحار»، وقد أُطلق هذا الاسم على الجزر لأن العرب يقولون إن هناك بحرين يلتقيان أحدهما مالح والآخر عذب في هذه البقعة وهما لا يختلطان. وأمطار الجزر قليلة ومعدومة في الصّيف ومع ذلك فهي مشهورة بينابيعها العذبة، والتي تعود في مصدرها إلى جزيرة العرب [38] أو بلاد فارس، والمياه لا تتدفق على شكل بحيرات وآبار على الشّاطئ فحسب، ولكن تحت مياه المدّ والجزر توجد ينابيع عذبة على بعد عدة أميال داخل البحر. وقد يمتعك مشاهدة العرب وهم يخرجون بمراكبهم، ويضعون عصا الخيزران فوق فتحة ضمن الصّخور ثم يجمعون المياه العذبة فوق مستوى البحر بقرابهم الجلدية الضخمة.

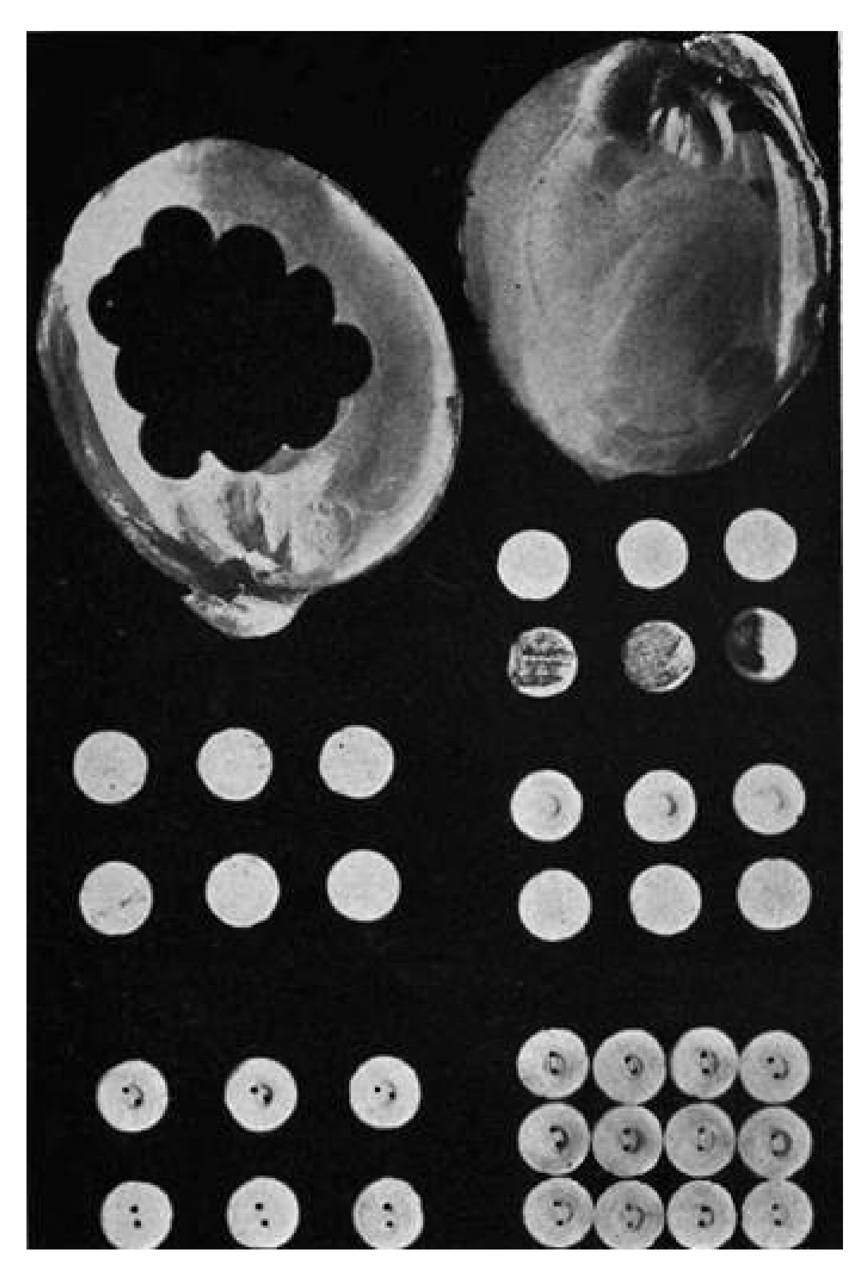
تاريخياً، تُعد البحرين من أهم المناطق لأن الكلدانيين Chaldeans والفينيقيين Phoenicians سكنوا فيها [39]. إن بعض تلال الجزيرة أقدم من آثار بابل. ويقال بأن الفينيقيين قد عبدوا «إله البحر» الذي من المفترض أنه حمل سفينة نوح فوق الطّوفان.

إن صائدي اللآلئ في البحرين يوظفون حوالي ثلاثة آلاف وخمسمئة قارب، منها الكبير ومنها الصّغير. تزن المراكب من واحد إلى خمسين طناً. تستطيع الصّغيرة منها استيعاب من ثلاثة إلى خمسة عشر صياداً يعملون على الشّاطئ؛ أما الكبيرة فتستوعب من خمسة عشر إلى ثلاثين صياداً على طول

شاطئ الخليج. إنه من الرّائع أن ترى الأسطول وهو يغادر الميناء والأشرعة البيضاء المتجهة نحو الرّياح وهي تلمع تحت أشعة الشّمس، والمياه الزّرقاء في الأسفل والسّماء الأكثر زرقة من الأعلى.

هل شاهدتم يوماً ملابس الغطس؟ إنها تبدو قبيحة بالنسبة لي. لا يعتني العرب بلباس الغطس كما يفعل الأميركيّون. إنهم يلبسون اللباس الأبيض الكامل لأنهم يقولون إن أسماك القرش لا تأبه للأبيض [40] ويضعون الفطام fatam [41]، أو ملقط الأنف ويحملون حلقات من الجلد يتلقفون بها الأصداف، مع حبل مشدود على حزامهم ليتمّ سحبهم إلى الأعلى، وهذا هو اللباس بأكمله. بعد أن يدعو الصّياد ويقول «بسم الله» يغطس ويملأ السّلة سريعاً، ثم يشدّ الحبل بقوة فيُسحب إلى الأعلى، تُفرغ السّلّة بينما يأخذ فترة تنفّس قصيرة ثم يغطس ثانية، وتدوم هذه العملية من الفجر حتى الغروب.

يتعرّض الغواصون إلى مخاطر جمّة وهم يجلبون اللؤلؤ من عمق المحيط إلى سطحه. وأكثر ما يخشونه هو سمك القرش [42]، ففي موسم صيد اللؤلؤ يفقد عدد من الغواصين حياتهم أو يصبحون مشوّهين؛ إذ تُبتر ساق أحدهم أو ذراعه لأنّ فك القرش الحادّ والقوي قد أطبق على الصّياد وهو يحاول إحضار اللآلئ النّفيسة إلينا. وكثير منهم يصابون بالرّوماتيزم نتيجة لطبيعة مهنتهم. وبالإضافة إلى الرّجال الذين يقومون بالعمل، هناك في القارب بديل عنهم من أجل الصّلاة. فالغواصون منهمكون في العمل ولا يستطيعون الالتزام بالأوقات المحددة للصّلاة، لذلك يكرر هذا الرّجل الصّلوات نيابة عن كل واحد منهم ويؤدي الشّعائر الدّينية بدلاً عن كل رجل أو صبي. لا بدّ وأنه سيكون مشغولاً جداً في قارب يحوي طاقماً من ثلاثين رجلاً، إذ يجب عليه أن يؤدّي خمس صلوات عن كل رجل.



مراحل صناعة الأزرار الصّدفيّة

يقول العرب إن اللؤلؤة تتشكل في المحارة عندما تسقط عليها حبّة من المطر وهي تفتح فمها؛ وبهذا تحمل كل حبة مطر جائزة للغواص. «ولدت الجنّة وترعرعت في أعماق البحار الزّرقاء». واللؤلؤ هو أنقى الأحجار الكريمة، وبالنسبة إليهم هو أنفسُها. عندما تُحضر الأصداف إلى سطح القارب تُترك هناك طيلة الليل، وفي الصّباح تُفتح بواسطة سكين معقوفة طولها ستة إنشات [43]. حتى السّنوات الأخيرة الماضية، كانت كل الأصداف التي يتم فتحها ترمى مجدّداً في البحر وتُعد غير ذات قيمة، أما الآن فإنها تُجلب إلى

الشّاطئ بالأطنان وتودع في مخازن التجار حيث يقوم أبناء البلد بكشط النّتوءات الخارجية ثم يضعونها في صناديق خشبية ويتم تصديرها إلى الخارج بكميات هائلة [44].

تصنّف اللآلئ على الشّاطئ حسب وزنها، حجمها، شكلها، لونها وبريقها. قد تظنون أن بائعي اللؤلؤ غريبو الأطوار [45]. إنهم يحملون أنفس لآلئهم معهم في قماش قطني أحمر اللون وليس لديهم خزنات أو بنوك، لذلك فإن أسلم طريقة تخطر في بالهم هي حملها أينما ذهبوا معرّضين أنفسهم للاعتداء والنّهب؛ ولكن منذ أن قامت الحكومة الهندية بضمّ البحرين تحت وصايتها أضحت السّرقات نادرة هناك.

يدعى بائعو اللؤلؤ «بالطواويش» [46]، وتعني هؤلاء الذين يتعاملون بالطاسات (المناخل) النّحاسّية. عندما تُجلب اللآلئ إلى الشّاطئ يتم فرزها حسب حجمها أولاً، وللقيام بذلك يملك كل تاجر مجموعة من المناخل الجميلة تسع الواحدة داخل الأخرى. يحوي أصغر منخل ثقوباً حجمها بحجم سنّ قلم الرّصاص، وتتدرج حتى أكبر منخل الذي يبلغ قطره حوالي ستة إنشات وفيه ثقوب بحجم بذور الخردل. أثناء موسم الصّيد يجلس التجار العرب القرفصاء في بيوتهم يصفّون اللآلئ، وعندما يتم فرزها وتوضع في أكوام صغيرة وهي تلمع في ضوء الشّمس بلونها الأبيض على قطعة القماش الحمراء التي تغطي الأرض، يغدو منظراً يستحق الرّؤيا.

تبلغ الأموال التي يتم جمعها من صيد اللؤلؤ كل عام مليون دولار على أقل تقدير، لكن الرّبح الأوفر يذهب إلى أيدي التجار. أما الغواصون فهم يتقاضون أجوراً والعديد منهم غارقون بالديون. وبالرغم من تعرّضهم للأخطار، فهم سعداء بهذا العمل لأن صيد اللؤلؤ كالمقامرة لا يخلو من الإثارة. يعمل أحدهم ليوم كامل ويحصل على صيد قليل ثم قد يفاجأ بصيد ثمين خلال ساعة واحدة. إن أجمل لؤلؤة رأيتها في حياتي هي التي تم اصطيادها في مياه البحرين منذ عشر سنوات وبيعت آنذاك بعشرة آلاف دولار [47]. لا بدّ أنها تخص الصّياد المحظوظ الذي ذكره براونينغ Browning في هذه الأبيات: "There are two moments in a diver's life: One when, a beggar, he prepares to plunge, Then when, a prince, he rises with his prize".

«هناك لحظتان في حياة الغواص: إحداهما وهو فقير يجهّز نفسه للغوص،

ثم عندما يصعد كأمير وقد فاز بجائزته».

يدوم موسم الصّيد من أول مايو حتى آخر سبتمبر [48]. وخلال شهور الشّتاء يتدخل الطّقس البارد بشؤون العمل مما يدعو الصّيادين إلى الابتعاد وأحياناً يهرعون إلى المستشفيات حيث نُحسن استقبالهم ونعظهم بالقصة الرّمزية للؤلؤة النّفيسة، ولا أحد يستطيع تقدير موعظة كهذه أكثر من الرّجال الذين يعرفون كم هو مُكلف استخراج اللآلئ. تذكرون القصة الرّمزية: «إن مملكة الجنة كالتاجر الذي يبحث عن اللآلئ النّفيسة ثم يجد لؤلؤة ذات قيمة كبيرة، فيذهب ويبيع كل ما لديه ليشتريها». عندما نقول للعرب إن هذه اللؤلؤة النّفيسة هي مملكة الله والسّلام والعدل والسّعادة التي اشتراها لنا السّيد المسيح مقابل حياته ومنحها مجاناً لكل من يؤمن به، فإنهم يفهمون شيئاً من الرّسالة.

هل ستصلّون لصيّادي اللآلئ في البحرين الذين يجدون اللآلئ الثّمينة مع أن بيوتهم غاية في التواضع – وهي أكواخ من الحصير [49] تمتد على طول شاطئ البحر الكبير – والتي يمكن إدخال السّعادة إليها بالحضارة المسيحية وعلم المخلِّص؟ ليس من الصّعب لكم أن تحبّوهم لأجلهم. لقد أمضيتُ ساعات طوالاً على شاطئ البحر معهم وفي مراكبهم ونحن نتحدث عن أعمالهم. وقد كتب سير إدوين آرنولد Sir Edwin Arnold عنهم هذه الكلمات: "Dear as the wet diver to the eyes Of his pale wife, who waits and weeps on shore, By sands of Bahrein in the Arabian Gulf; Plunging all day in the blue waves; at night, Having made up his toll of precious pearls, Rejoins her in their hut upon the shore."

«كالغوّاص المبتل بالماء عزيزٌ في عينَي

زوجته الشّاحبة التي تنتظر وتنتحب على الشّاطئ،

بالقرب من البحرين في الخليج العربي؛

يغوص طيلة النّهار في الأمواج الزّرقاء؛ وفي الليل،

بعد أن يحصل على حصيلته من اللآلئ النّفيسة،

يعود إليها في كوخهما الذي على الشّاطئ».

12 - رحلة الرّيادة على ساحل القراصنة [50]

كان السّبت صباحاً في التاسع من شهر فبراير عام 1901 عندما بدأنا رحلتنا براً على طول السّاحل الشّرقي لجزيرة العرب يرافقنا بائع كتبنا إلياس. وبحسب تصوراتنا فإن رحلة الإبل الطّويلة ورؤية القرى الممتدة من الشّرق حتى مسقط، والتي لم تسجل على الخارطة بعد، كانت مخيّبة للآمال. لكن الحصيلة كانت رحلة أربعمئة وأربعين ميلاً وأكثر على طول السّاحل إلى الخليج الصّخري الذي يحيط بالمدخل الضيق للخليج. كانت تجاربنا ممتعة جداً وسأروي لكم بعضاً منها.

هل قرأتم يوماً القصة المضحكة عن «ثلاثة رجال في قارب»؟ حسناً، كنا أحد عشر بحاراً على متن قارب، بالإضافة إلى حصان عربي أصيل وكلب سلوقي [51] ينبح، أرسله حاكم البحرين إلى حاكم أبوظبي Abu Thabi. كان قاربنا من النّموذج العادي ليس فيه قمرات أو أي مكان ظليل، عرضه عشرون قدماً، وطوله خمسون من المقدّمة حتى المؤخرة. احتلّ الحصان المكان الأوسع للفسحة الضيقة في وسط القارب؛ بينما قُيّد الكلب في المقدمة حفاظاً على إمكانية الصّلاة؛ لأن الكلب بالنسبة لأتباع الدّين الإسلامي حيوان نجس، ومن المستحيل أن يجلس أو يقف في أيّ مكان إلا ويهرعون إلى مسحه أو غسله بالماء قبل استعماله، وخصوصاً عندما يريدون الصّلاة.

كان راكبا الدّرجة الأولى وأمتعتهما على يسار مؤخرة السّفينة؛ بينما كان أفراد الطّاقم ينامون ويغتسلون ويأكلون السّمك المجفف والأرز في أيّ مكان؛ أما ربان السّفينة ورجل الدّين وأحد التجار فكانوا يجلسون القرفصاء إلى يميننا. لن أرهقكم بالكلام عن الأيام التي مضت بعد أن عزمنا على الرّحيل ورُفع الشّراع. لا يمكن توقع انطلاق مركب شراعي محلّي إلا بعد أن تتضاعف ثّلاثة أيام الابتهال (والتلهّف المتذمّر). لا نستطيع لوم عبد الله بن قنبَر Abdallah bin Kambar؛ إذ فرّ اثنان من بحّارته وكان لا بدّ له من أن يبحث عنهما ويعيدهما إلى القارب. مع نسيم البحر اللطيف السّريع الذي ملأ الشّراع الضخم بدأنا الرّحلة ونسينا التأخير والخبز الجاف الذي خُبز منذ ثلاثة أيام.

شقت السّفينة طريقها باتجاه أبوظبي Abu Thabi، وهي أول أهم مدينة على السّاحل الجنوبي. ما زالت الرّيح مواتية، وفي يوم الاثنين كنا نبحر بين جزيرتين

صخريتين غير مأهولتين إلا بعدد قليل من الصّيّادين في موسم الصّيد. قابلتنا إلى الأمام قليلاً جزيرة «دلما» [52]، وحدث جدال مطول بين الرّبان ومعاونه حول الجزيرة التي نمرّ بها. وعندما احتدم الجدال حسمت خارطتي الأمر. إنها جزيرة قديمة، يجتمع فيها صيّادو اللؤلؤ في كل موسم مع التجّار بشكل سوق في عرض البحر.

إنّ تعب الخمسة أيام بلياليها على متن القارب قد انجلى، وكان لدينا العديد من الفرص للقراءة وعمل أشياء أخرى.

كنا نطهو وجباتنا ونحاول الصّيد بالخيط والخطاف؛ وذات مرّة اصطاد ربّان السّفينة بطّة بريّة ببندقيته الصّدئة ولكن بالرغم من مساعدة الجميع في ملاحقة الطّير الجريح، فقد استطاع الهرب. ومرة أخرى شاهدنا سمكة قرش ضخمة، وفي فترة بعد الظهر كانت لنا قصص مع الأسماك. كان عبد الله، الشّاب الأسمر، يجلس ليلاً إلى عجلة القيادة ويخبرنا قصصاً لا يتمكن من سردها بهذا الشّكل سوى عربي أسمر؛ وكأنها قصص ألف ليلة وليلة، وكيف سرق محتال حصاناً ثميناً، حيث وضع اللجام حول عنقه هو وجعل شريكه يهرب بالحصان! كانت لنا الرّيادة في المناقشة في كثير من الأوقات، وأتيحت لنا فرصة رائعة لتقديم الموعظة والوصايا. بإمكانك أن تحكم فوراً بجهل البحّارة العرب وسذاجتهم من الملاحظة المشتركة التي يبدونها عندما يكون معهم ركاب مبشّرون فيقولون: «لم تكن لدينا أدنى فكرة أن النّصارى قوم محترمون وأنهم يصلّون لله».

في تمام السّاعة الثّالثة من بعد ظهر يوم الخميس وصلنا أبوظبي Abu Thabi. كانت هذه زيارتي الأولى للمدينة، أما إلياس فقد زارها من قبل. وجدنا هناك حاكم المدينة [53] وهو رجل حادّ الذّكاء ذو سجايا فاضلة كريمة. أعطانا غرفة واسعة في أحد منازله، وعلى مدى أربعة أيام كان الطّعام الوفير يأتينا من موائده، وكانت جميع مطالبنا مُجابة: صحون كبيرة مليئة بالأرز المشبع بالمرق وعليها قطع كبيرة من لحم الغنم الفاخر، والمحاطة بالتّمر وأرغفة الخبز، توضع على سجادة مدوّرة مغسولة بالماء المعطّر. كنا في ضيافته لا نعرف ما هو الجوع أبداً.

عندما علم سكان أبوظبي بقدوم غرباء معهم صندوق أدوية وكتب أصبحت غرفتنا مليئة بالفضوليين أو المرضى، من الفجر وحتى غروب الشّمس. هذه هي إحدى مساوئ لطفهم، فضيافتهم لا تتضمّن إتاحة الخصوصية لضيوفهم. لا يُترك الضيف بمفرده أبداً، وكأن الانفراد بالذّات شيء محرّم. لذا علينا نسيان ساعات التأمّل والقراءة وحتى تغيير الملابس، إلى أن يحلّ الظّلام بعد رحلتنا البحرية الطّويلة.

كان الحشد الذي اجتمع في الفناء وملأ غرفتنا غريباً، كان صفاً طويلاً من العرب الذين جلسوا حول الجهات الأربع للفناء، أغلبهم من العُمانيين ولكن كان يرافقهم رجل دين من مكّة ولديه الكثير ليقوله. كان متجولاً يلبس عمامة بيضاء مع ابتسامته السّاخرة، ويسكن في جزيرة قيس في الخليج حيث يدرّس في مدارسها، ويكتب التعاويذ للعوام. جرى بيننا حديث هادئ بعد أن تفرّقت الجموع. كان من المحزن لنا أنه لا يعلم الكثير عن ديننا. لقد وصله خبر موت الملكة ڤيكتوريا هذه اللحظة فقط، وروى لنا قصصاً خرافية كيف أن المرأة تحكم القوم عند المسيحيين! لم يكن بيعنا للكتب المقدسة واسعاً ولكنهم كانوا يطلبون كتباً أخرى. أحد الفقراء المثقفين بادلنا بكتاب الحريري (شيكسپير العرب) مقابل عدد من الكتب.

غادرنا أبوظبي في قارب صيد متوجّهين إلى دبَيّ، على بعد ثمانية أميال على السّاحل بخط مستقيم. ولكن الرّيح أرغمتنا على السّير بشكل متعرّج.

أصبح هذا المكان عاصمة الجزء الغربي من عُمان [54]، وتفوّق على المدن الأخرى بتعداد السّكان والتطور والتجارة والعمران. على طول الطّريق بين أبوظبي ودبَيّ يبدو السّاحل مقفراً ولا أثر لأشجار النّخيل ولا للبيوت؛ كانت المنطقة منبسطة بشكل كبير لدرجة أن هضبة بارتفاع مئتي قدم (وهي المَعلم الوحيد للبحّارة)، كانت تدعى «جبل علي» [55] "the High Mountain".

لم تطل زيارتنا لدبَيّ مع العلم أننا حظينا بصباح جميل بضيافة حاكم دبَيّ [56] هناك والتقينا بعضاً من عرب الدّاخل. كانت لأحدهم الرّغبة باصطحابي على طول الطّريق حتى جدة، ميناء مكة. وفي فترة بعد الظهر بدأنا ببيع الكتب المقدسة في ضواحي البلدة وبعد فترة وجيزة اجتمع الحشد.. نساء وأطفال مع عملاتهم النّحاسية ومدّخراتهم يريدون شراء الإنجيل، بلغتنا التجارية «القصة الحقيقية لحياة السّيد المسيح». بعد خروجنا من دبَيّ على ظهر الحمير لحق بنا على بعد ميل من البلدة ولدان كان قد فاتهما الوقت، فأحضرا نقودهما وابتاعا ثلاثة كتب أخرى. أخذَنا رُبّان السّفينة [57] إلى منزله لتناول طعام الفطور فور وصولنا، وعرض لنا أبياتاً من الشّعر كانت زوجته قد كتبتها. وقد حدّثتنا عن كتاباتها وعن القرآن، فتركنا لها نسخة من الإنجيل.

من دبَيّ إلى الشّارقة، كانت الرّحلة على ظهور البغال، ولأن صندوقينا كانا ثقيلين فقد وُضعا على بغلين آخرين؛ وكانت المسافة حوالي عشرة أميال. في الشّارقة التقينا أصحاباً قدامى وكنا سعداء لأننا كنا نلقى في هذه البلاد التّرحيب المرّة تلو المرة. أظهر لنا تاجر عربي حفاوة بالغة وعرض علينا فكرة

استئجار دكان مع غرفة علوية. ومنذ هذه الزّيارة أصبحت حملاتنا التبشيرية متكررة إلى هناك.

من الشّارقة توجهنا إلى «لنجة» ثم عدنا إلى البحرين على متن سفينة بخارية لنقل البريد. ولكن إلياس تابع مسيره ليزور عَجمان والقرى التي تليها حتى «رأس الجبل». إن المزمور الثّاني والسّبعين بترجمته العربيّة يقدّم الوعد على هذا النّحو: «لتتكاثر الغلال في الأرض وعلى رأس الجبل Ras-el-Jebel، وتتماوج مثل أرز لبنان».

13 - عبر صحراء عُمان

عُمان هي شبه جزيرة ملاصقة من النّاحية الشّرقية لشبه جزيرة العرب وغالباً ما تُدعى بجزيرة. تحيط بها من ثلاث جهات مياه المحيط الهندي والخليج العربي، ومن الغرب يحدّها بحر الرّمال الشّاسعة التي يدعوها العرب «بالرّبع الخالي» والتي لم تطأها قدم عابر سبيل حسب معرفتنا. يخاف العرب أنفسهم من عبور هذه المنطقة لأبعد من حدود الواحات التي تلامس حدودها، وفي جميع الخرائط تجد هذه المنطقة «خالية وغير مكتشفة». عاش العُمانيون حياة متميّزة عن باقي العرب لأنهم كانوا ضمن جزيرة محاطة بالمياه من جميع الاتجاهات عدا عن حدودها القليلة مع الصّحراء. ولغتهم فيها لهجة غريبة، وحتى في مذهبهم الدّيني، مع أنهم من أتباع محمّد، فهم يختلفون عن باقي مناطق جزيرة العرب.

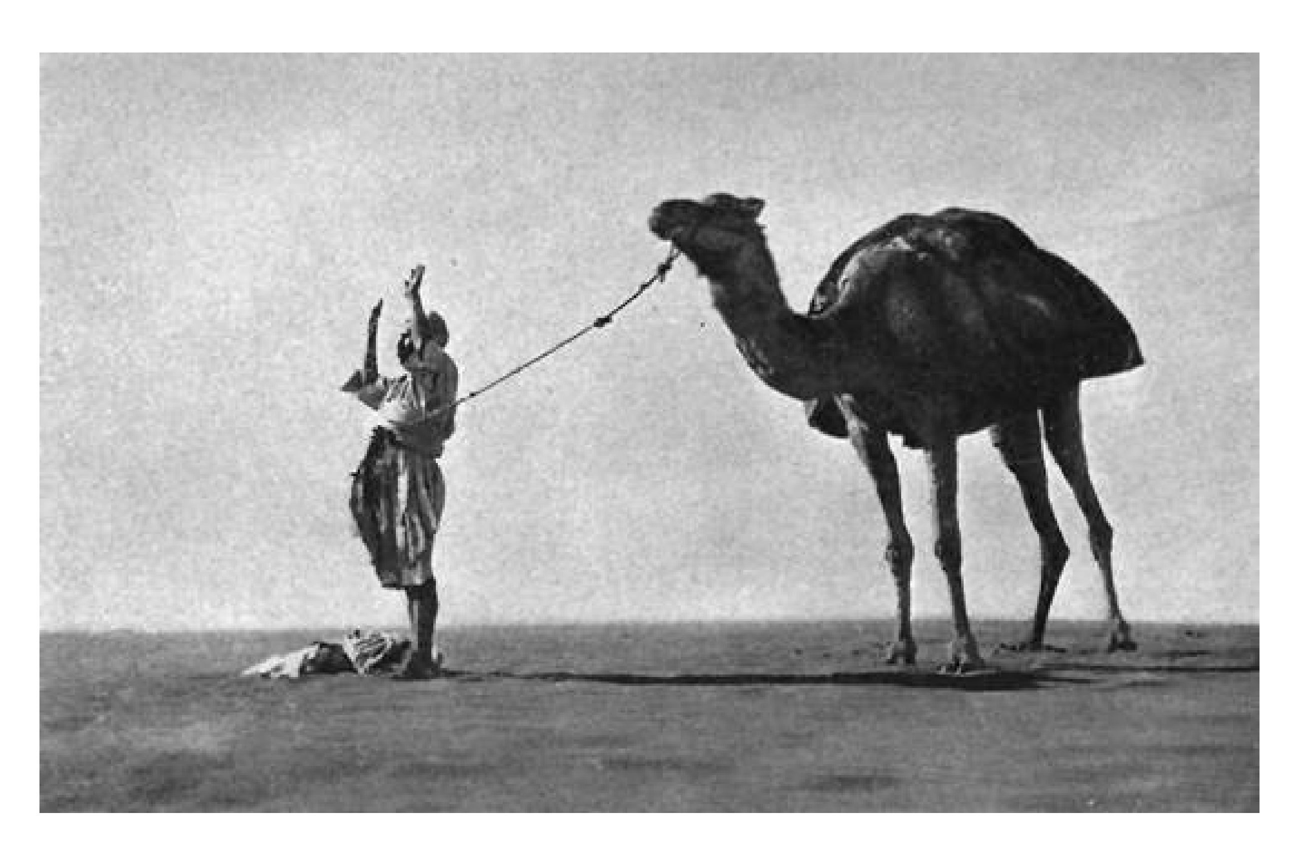
لقد كانت لنا رحلتان عبر هذه الصّحارى. وكذلك جرت رحلات أخرى بعدها، وبإمكان بعثاتنا التبشيرية الطّبية زيارة كل القرى الجبلية الواقعة وراء السّاحل. في التاسع من شهر مايو 1900، قمت وبائع كتبنا بوضع صندوقي الكتب والأدوية على متن قارب شراعي صغير وانطلقنا من خليج البحرين في السّاعة الرّابعة حيث كانت الرّيح مواتية. كنا ننوي زيارة ساحل القراصنة [58]، ومنه إن استطعنا، نعبر رأس عُمان إلى مسقط براً.

كان الرّبان وطاقم المركب كلّه من المسلمين المتشدّدين، مع العلم أنهم جميعهم كانوا سابقاً من تجار العبيد. اجتزنا هذه المسافات بطرق متعرجة إلى السّاحل الفارسي لتفادي المياه الضحلة واغتنام الرّيح، وصلنا إلى «بستانه» Bistana ثم أبحرنا عبر الخليج مباشرة إلى الشّارقة. قابلتنا في منتصف الطّريق جزيرة أبو موسى الصّغيرة [59]، بأعدادها القليلة من السّكان، ومراعيها الرّائعة، والحليب والماء السّائغين. تتألف صادراتهم الأساسية من الأوكسيد الأحمر [60]، ويوجد منه تلّتان فيهما مخزون لا ينضب. تمرّ القوارب البخارية بهذا المكان بين الفينة والأخرى من أجل هذا الحجر الرّخيص الشّائع. وقد قمنا بترك شاهد مرورنا بعدد من الكتب المقدسة باللغة العربية.

في الرّابع عشر من شهر مايو وصلنا إلى الشّارقة، المدينة الرّئيسية لساحل القراصنة. كان هذا المكان معروفاً منذ القديم بشراسة أهله [61]، ولكن بفضل التجارة البريطانية وسفن المدفعية أصبح هؤلاء المتعصبون أكثر تمدناً؛ فتخلى الكثير منهم عن أعمال القرصنة [62] وتوجهوا إلى الغوص وصيد اللؤلؤ كوسيلة لكسب العيش. إنّ خيامهم السّوداء ومساكنهم الصّخرية هي السّمة الأساسية لمدن الشّارقة، ودبي، وأبوظبي ورأس الخيمة.

وجدنا العرب هناك يحبّون الضيف كثيراً وخفّوا فوراً لاستقبالنا. ولمدة سبعة أيام أقمنا مستوصفاً وغرفة للاستقبال في الكوخ الذي خُصّص لنا، حيث أتى إلينا أكثر من مئتي عربي لأخذ الدّواء وشراء الكتب، أو مناقشة سبب حملتنا. كان الكثير منها محادثات هادئة حول مختلف أوضاع العرب. ولم يكن هناك استراحة حتى ما بعد غروب الشّمس. وعندما ينادي المؤذن لصلاة الفجر، يأتي النّاس إلينا من جديد. كانوا لطفاء بشوشين جداً وأكثر ودّاً من سكان اليَمَن ولكنهم أقل تظاهراً من سكان نجد.

سمعنا من كل الجهات أن السّفر إلى داخل عُمان آمن جداً، وبعد المساومة مع سائقي الجمال اتفقنا أن يرافقنا دليلان وخمسة من الإبل إلى «صُحار» بمبلغ عشرين ريالاً، وهو الدّولار العربي [63]. انطلقنا في التاسعة من مساء يوم العشرين من مايو، وبعد استراحة قصيرة في منتصف الليل لسقاية الجمال تابعنا السّفر حتى التاسعة من اليوم التالي. ولكي نتّقي الحر كنا نسير قدر المستطاع ليلاً ونرتاح نهاراً تحت شجيرات الأكاسيا الهزيلة أو في ظلال خيام البدو، وبذلك أنهينا مسافة الأميال التسعين خلال أربعة أيام أو أكثر بقليل. كان أغلب الطّريق الذي سلكناه صحراء قاحلة ولا أثر للمدن أو حتى خيام البدو؛ وكان الطّريق الاعتيادي لوادي «حَم» [64] Wady Hom غير آمن لذلك سلكنا طريق وادي «حتّى» Wady Hitta.



صلاة في الصّحراء

كنا نعبر أمام هياكل عظميّة لجمال أحالت الشّمس المحرقة لونها إلى الأبيض. عندما يقع الجمل متقرّح القدمين أو منهكاً فليس من بديل عن تركه يقضي نحبه في البراري. في اليوم الثّاني مررنا بقرى وأراض مزروعة؛ في تلك الليلة فرشنا أغطيتنا فوق الرّمال النّاعمة وكنا محاطين بآلاف من النّعاج والماعز التي كانت فتيات بدويات تقودها من مراعيها الجبلية. حتى بين هؤلاء الرّعاة وجدنا من يشتري بعضاً من كتبنا، وكنا نفعل ذلك كلما توقفت الجمال لتستريح فنقوم بالمساومة.

وصلنا إلى «حتّى» من مضيقها الضيّق يوم الأربعاء في الثّالث والعشرين من شهر مايو. كان الدّليلان يتقدمان وهما راكبان وقد تسلّحا ببندقيتين محشوتين ومصوّبتين؛ ثم يأتي الجمل المحمل بالأمتعة، وإليه تم ربط جملي، وبنفس الطّريقة قُيّد جمل مرافقي إلى النّاقة الحلوب يتبعها فصيلاها. لم يكن الحرّ يزعجنا أثناء الليل، أما في النّهار فكان غير محتمل، وكان من المنعش أن تصادفنا بعض الواحات (وهي شائعة في هذه المنطقة من عُمان) حيث تتفجر المياه من نبع كبير، وتنمو الأشجار والأزهار بوفرة.

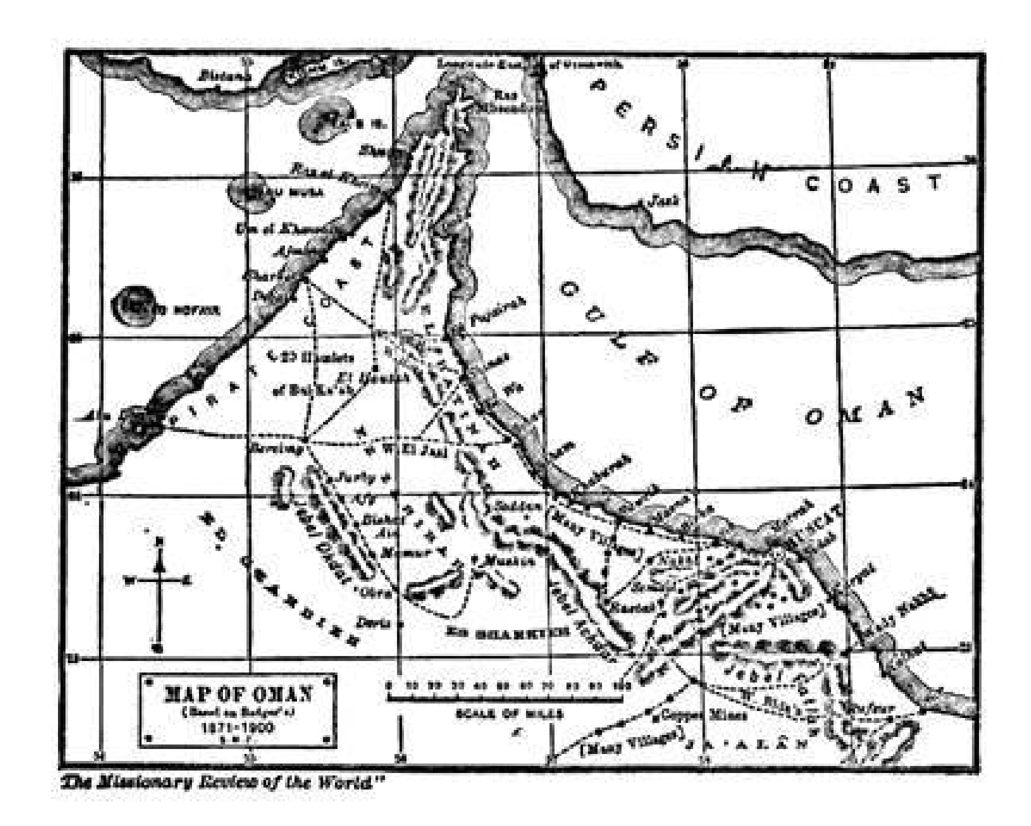
في الأجزاء الجبلية من عُمان تمتدّ الطّرقات غالباً على طول المجاري المائية الرّملية أو الوديان الصّخرية العميقة. ومن أهم الأشجار والشّجيرات

الموجودة الطّرفاء والدّفلى والأكاسيا. وحيث تبدو المنطقة قاحلة، نتفاجأ عندما نرى عدداً لا بأس به من السّكان من رعاة الغنم والماعز. كانت مساكنهم مجرد أكواخ مبنية بالحجارة أو الصّخور. أما في الوديان الخصبة فيتمركز معظم السّكان في القرى ونادراً ما تجد مسكناً منعزلاً عن المركز المعروف.

عند قمّة ممرّ جبل حتّى، تقع قرية «عجيب» Ajeeb، وهي عجيبة حقاً كاسمها. والمنظر من فوق الجبل وعلى طول الامتداد الخصب للسّاحل المدعو بالباطنة Batinah وحتى المحيط الهندي مترامي الأطراف، كان رائعاً ومهيباً. نزلنا إلى البحر والنّهر الجبلي المتدفق بمياهه الباردة التي خاضتها أقدامنا الحافية عند الفجر الباكر، ثم تضاءل النّهر إلى جدول صغير ليصبّ على الشّاطئ كساقية ضئيلة من المياه العذبة. إن هذه الجداول الدّائمة على مدار العام هي سرّ خصوبة السّاحل لما يقرب من مئة وخمسين ميلاً.

على شاطئ «شناص» Shinas أمضينا اليوم الحار بطوله. كان المسجد مأوانا الوحيد ومكاناً لبيع الكتب. قادنا شيخ عجوز إلى كوخه بعد صلاة الظهر ليقدّم لنا الضيافة المتواضعة. لقد تحدث إلينا بحرارة عن أخي بيتر. ج. زويمر Peter J. Zwemer الذي أتى إلى هذه القرية منذ ثلاث سنوات. ومن شناص أخذتنا الإبل إلى «صُحار» Sohar. لم نستطع التوقف في قرية لوى El Wa الكبيرة لأن رعاة الإبل كانوا يخافون من إصابتنا بالجدري الذي كان منتشراً هناك. كان كل الأشخاص الذين مررنا بهم ودودين إلى أقصى درجة. جلبت لنا النّساء الحليب الطّازج والفاكهة قبل أن نترجل، وحتى الصّبية، بدلاً من الاستهزاء بالأجانب الغرباء، فقد ألقوا علينا السّلام salaamed وسرَّهم أننا، رغم مظهرنا، كنا نتكلم العربية. لم ننفق أيّة قطعة نقدية للسكن أو للطعام، إنها مدينة الضيافة الجمّة. عندما تساعد مريضاً أو تعطي الكينين للمصاب بحمّى الملاريا، كان ذلك يشعرهم بالرّغبة في رد الجميل لأبناء السّبيل.

كانت رحلتنا الثّانية عبر شمال رأس عُمان في مايو 1901 مع رفيق السّفر نفسه؛ ولقد أبحرنا من البحرين إلى أبوظبي Abu Thabi، ومباشرة إلى شرقي ساحل عُمان وعلى طول شواطئها إلى مَسْقط على ظهور الجمال. كانت الرّحلة الأطول التي قمتُ بها في حياتي ممتطياً الجمل، وعندما وصلت إلى مَسْقط، اقتنعت تماماً أن الجمل ليس فقط سفينة الصّحراء ولكن هو الصّعوبة بعينها [65].



خارطة عُمان والإمارات العربيّة

تقع مدينة أبوظبي التي بدأنا منها رحلتنا البرّية على ما يشبه جزيرة تتشكّل خلف مياه خليجها. كان هناك صدع باتساع مئتي ياردة ويمتلئ بالمياه بعمق أربعة أو خمسة أقدام، يحمي المدينة من غزو الصّحراء، وقد بُني بالقرب من حاجز المياه هذا حصن [66]. بعدما خاضت إبلنا في المياه حتى صدورها وقد ابتلّت أمتعتنا تقريباً، بدأنا الرّحلة الصّحراوية. كانت الطّريق قاحلة ومنبسطة على مسيرة ثلاث ساعات؛ ثم مررنا ببروزات صخرية تدعى «حصن الشّيطان» devil’s castle. كنا نسير طوال النّهار في هذه الطّريق الرّملية التي تندر النّباتات، نرتاح في الظهيرة بظل غطاء مربوط فوق صندوقينا. كان الطّقس حاراً وبدأ طعم المياه في قرابنا الجلدية يتغير من طول الرّحلة الشّاقة. كان لدينا بعض التمور واستطعنا طبخ بعض الحساء من الخضار المعلبة ولكن البدو المرافقين لنا اصطادوا سحلية كبيرة [67] وصنعوا منها حساءً مع الأرز. ولقد امتعضوا لأننا لم نشاركهم طعامهم.

وصلنا يوم الأحد إلى منطقة مخيّم عربي حيث نلنا قسطاً من الرّاحة. احتفلوا بنا بالحليب الطّازج، وفي المساء ذبحوا جدياً سميناً وخبزوا بعض الخبز على الرّماد. وعند التاسعة من هذا المساء تركنا أصدقاءنا البدويين وأكملنا

الرّحلة إلى ما بعد منتصف الليل حيث تدلنا النّجوم على جهة الشّرق. كان الطّقس بارداً في ليالي الصّحراء. إن هذه الفروقات في درجة الحرارة بين الليل والنّهار مرهقة ولكنها ليست مؤذية للصحة.

في اليوم التالي وجدنا في الطّريق طفلة بدوية ضائعة في الصّحراء وتكاد تموت من العطش. كانت قد ذهبت تبحث عن بعير تائه إلى أن فقدت بدورها معالم الطّريق. ولقد أمضت يومين في الصّحراء بمفردها وكادت تفقد الأمل. أعطاها دليلنا قليلاً من الماء والتمر وأرشدها إلى أقرب طريق إلى المخيم. كل هذا الامتداد حتى البريمي Bereimy هو قفار واسعة من الرّمال لأميال وأميال في كل اتجاه؛ ليست رمالاً مستوية، بل أمواج من الرّمال تبلغ مئة قدم في العلو وهي تتغير مع كل عاصفة.

كان التغيير محبباً عندما وصلنا إلى البريمي Bereimy وقراها السّبع، مع ينابيع المياه العذبة والتمر وأشجار المانغو ومزارع الخضار. وراء هذه الواحة تمرّ الطّريق الجبلية بقرى عدّة إلى عبري Obri وضنك Dank. سلكنا الطّريق القصيرة داخل وادي الجازي Wady-el-Jazi مباشرة إلى صُحار. والقوم في هذه المناطق في حرب دائمة بعضهم مع بعض، يستيقظون وينامون والأسلحة إلى جانبهم. حتى الأولاد الصّغار يحملون السّكاكين في أحزمتهم والكبار في السّن لا تفارقهم بنادقهم الملقّمة. لكننا لم نتعرض لأيّ هجوم إلى أن وصلنا إلى صُحار بأمان، لكننا لم نذهب إلى مَسْقط بحراً لأن الرّيح كانت هادئة. وقد شجّع بعضنا الآخر بملازمة الإبل لأربعة أيام أخرى، مما جعل المسافة من أبوظبي إلى مَسْقط حوالي ثلاثمئة ميل.

كانت المنطقة بأكملها ممتعة جداً. بالرغم من حالة الحرب المستمرة، فإن الفلاحين يزرعون كافة أنواع المحاصيل في الأماكن الخصبة. شاهدنا الشّعير والقمح والسّمسم والخضار وحتى التبغ. وفي إحدى القرى أخذنا قسطاً من الرّاحة على الأرض المدروسة حيث يستلقي بكسل المحراث القديم ذو الأسنان الحادّة الذي يخبرنا عنه الإنجيل. والمحراث العُماني أجود بكثير من ذاك الذي في شمال جزيرة العرب. فهناك يحرثون الأرض بمنكاش حاد تستطيع أسنانه القوية تفتيت التربة الرّملية القاسية وقلبها، أما الفلاحون في هذه المنطقة الجبلية فقد صنعوا محراثاً من الحديد له إطار صلب مدعّم بقبضة عمودية ذات ثلاثة قضبان قائمة الزّاوية. وملابس النّساء والرّجال هنا أكثر تميزاً عن باقي مناطق جزيرة العرب، وبيوتهم مبنية كالقلاع. وكل بئر تقريباً يحميه حصن، وإن القرى التي تبعد ميلاً أو ميلين عن بعضها هي في حالة حرب دائمة لسنين طويلة. وهذه هي العقبة الرّئيسية للسفر في هضبة عُمان.

قبل أن تنسوا رحلتنا عبر هذا الجزء من جزيرة العرب، أريد منكم أن تفكروا بعربي يصلّي في الصّحراء. أحد الأسماء التي يطلقها العرب على

الصّحراء هو «جنّة الله» "Garden of Allah" لأنهم يقولون إنه ما من أحد موجود هنا إلا الله، لا أحد يأخذ تفكيرك غير قبة السّماء الزّرقاء الخالية من الغيوم، والبعد الشّاسع من الرّمال والصّخور على امتداد الأفق. لا عجب أن الصّحراء كانت المدرسة الأولى لكل الأنبياء والمعلمين. تذكّروا موسى، وإيليا، وبولس، والمسيح.

طيور سجينة - 14

هل سمعتم يوماً عن مبشّرين أصبحوا طيوراً في السّجن؟ حسناً. كانت هذه تجربتي، وإليكم القصة [68].

في اليوم الذي تلا ليلة الميلاد منذ عشر سنوات، قررنا أن نذهب في جولة داخل جزيرة العرب من محطتنا جزيرة البحرين [69]. أخذنا زادنا المؤلف من الخبز الطّازج واللحم المعلب وأشياء أخرى وأخذنا ملابس إضافية، وصندوق كتب وبعض الأدوية للناس هناك. عمل خادمنا العربي جاهداً من أجل تأمين مركبنا لأن النّاس كانوا لا يزالون يرتابون بالمسيحيين ولم يكونوا متحمّسين لبدئهم العمل في أماكن جديدة. بعد تأمين قارب كان ربانه مستعداً للسماح لمسيحيين بالسفر معه، كان علينا مع ذلك الانتظار. في جزيرة العرب عندما يسافر المرء في قارب محلي فلا بد من التأخير؛ الذي قد يكون ساعتين وأحياناً أخرى بضعة أيام. لا يمكن الرّكون إلى الوقت أو المَدّ أو مزاج العرب في الخليج العربي. فلا حاجة للقلق أو التذمّر، وهذا ما يجعل العربي قليل الحركة.

عند الرّابعة اقترب قارب صغير من الشّاطئ بقدر ما تسمح به المياه، ثم كان علينا امتطاء ظهور الحمير عبر الأمواج للوصول إلى القارب المتأرجح، ومن هذا «المركب الظريف» "jolly-boat" تمّ نقلنا إلى السّفينة المحليّة حيث استقرّينا في المؤخرة مع كل أمتعتنا. لم يكن سطح السّفينة هذه يتعدى ستة أقدام بأربعة، لذلك كان لا بدّ لنا من الجلوس متلاصقين حتى لا نقع في المياه. كان قائد السّفينة يؤمّن لنفسه مكاناً يبلغ ثلاثة إلى أربعة إنشات مربعة وكانت أصابع أقدامه الحافية تتشبّث بمقدّم السّفينة كأصابع قرد على غصن شجرة. رُفع شراع السّفينة وانطلقنا لمدة ثلاث ساعات. بعدها هدأت الرّياح وبقينا على مرأى من الشّاطئ حتى صباح اليوم التالي. وبعد صلاة الفجر رُفع الشّراع مجدداً وبفضل المجاديف الغريبة التي يستعملها العرب زادت سرعة السّفينة. أخيراً، وبعد صراع حاد وصلنا إلى وجهتنا.

تراءت لنا دارين [70] Darain هذه المدينة الصّغيرة الجميلة وهي تقف بوضوح تحت أشعة الشّمس، وكنا سعداء لأننا في آخر المطاف وصلنا إلى أرض جزيرة العرب. كنتُ المرأة المسيحية الوحيدة التي وطأت قدمها هذا الجزء من السّاحل. كان هناك حوالي ربع ميل من المياه الضحلة لنعبره. وكان مضيفنا العربي من اللطف بمكان بأن قدَّم لي عدة خيارات لتنقلاتي: كرسياً،

وحصاناً، وحماراً. فاخترت الحمار لأنه الأكثر أماناً في السّير عبر المياه إلى اليابسة. تبعني بقية صحبي، ثم دُعينا إلى غرفة الضيوف في البرج، وهي غرفة واسعة مهواة فيها ما يقرب من عشرين نافذة من غير زجاج، فقط بعض السّتائر؛ وعندما تنفث الرّياح رمال الصّحراء تغلق السّتائر الخشبية بإحكام ولا بد للهواء والضوء من أن ينحجبا أيضاً. كان مضيفنا يعاملنا بودّ ولم يُبد أي تحفظ تجاهنا على الرّغم من أنه كان يرتاب بأننا أتينا لأغراض تبشيرية جدّية في قريته، وهذا أمر لا يَسمحُ به.

كانت معاملته لنا لا تخلو من كرم الضيافة العربية، مع ذلك كان شكّه واضحاً، إذ أبقانا بعيدين عن ضيفه التركي حاكم منطقة القَطيف Katif. كان لا يريده أن يعلم أنه يستضيف مسيحيين. وبعد ثلاثة أيام من التسلية، أخذتنا سفينتنا ثانية إلى القطيف. مكثنا هناك بضعة ساعات ولكننا وجدنا أنفسنا وكأننا في «عشّ دبابير» حقيقي. لم تستطع ابتساماتنا الجذابة إذابة قسوة موظفي الميناء. قالوا لنا إن جوازات سفرنا لم تجهّز بالشكل المطلوب ولذلك كان لا بدّ لنا من العودة من حيث أتينا فوراً.

لحسن الحظ لم يكن هناك مركب جاهز للعودة، ولم يكن في نيّتنا أن نعود قبل محاولة نشر بعض من كتبنا المقدسة التي جلبناها معنا، وأيضاً لنكسب ثقة النّاس هناك. لم يصبنا اليأس، لأنه حتى في هذا المكان غير المضياف، التقينا بشخص تلهف على استقبالنا ودعانا إلى منزله. شعرنا بالسعادة لساعات قليلة. جهّزت زوجته الطّعام وقدمته لنا بكثير من حسن الضيافة. جهزّوا لنا غرفة بأثاث جيد وكنا مسرورين لمعرفة أن هذا المسلم كان قارئاً للإنجيل، حيث أنه في أحد كوى جدران الغرفة كانت نسخة من العهد الجديد بدت عليها علائم التصفّح المستمرّ.

لم يمضِ على حلّ أمتعتنا سوى برهة صغيرة، حتى سمعنا صوتاً من الأسفل يدعونا إلى النّزول وجلب أغراضنا في الحال. كان شرطياً ضئيل الحجم أمرنا باتباعه، وهكذا ذهبنا في ممرات ضيقة وكدرة، وشوارع ذات رائحة كريهة حتى وصلنا إلى فسحة منزل واسع متهدم، أدراجه مكسّرة وقذرة بشكل لا يوصف. صعدنا الدّرج بصعوبة إلى غرفة صغيرة منعزلة في أحد أجزاء المنزل، كانت تودي إلى سطح صغير لها باب واحد ضئيل وليس لها نوافذ.

أُحضر قنديل يطلق دخاناً دون مدخنة بدّد الظلام وأظهر لنا قذارة المكان. سكنت أجيال كثيرة من النّاس والحشرات في هذا المكان وطبعت ذكرياتها على الحيطان. عندما اعترضنا وأبدينا الرّغبة في المكوث في مكان غير هذا أجبرونا على البقاء هناك لأننا سجناء، وأنه غير مسموح لنا بالذهاب إلى مكان آخر. انتظرت عودة زوجي الذي أُخذ إلى الحاكم، وأمضى أكثر من ساعة في محاولة لإقناعه بإخلاء سبيلنا ولكن دون جدوى. لا بدّ لنا من البقاء في هذا

المسكن. كان الحراس في كل مكان لحمايتنا ومنعنا من الخروج. لذلك رضخنا للأمر الواقع.



امرأتان بدويّتان وطفلاهما

كان العربي اللطيف الذي من دارين Darain غائباً كذلك في القطيف، وفي المساء جلب للطيرين السّجينين بعض الأغطية وسجادة صغيرة لتشعر بقليل من الرّاحة. بذلنا جهدنا لنيل قسط من الرّاحة لكنه كان أمراً مستحيلاً وكنا سعداء عندما انبلج الصّباح. قرّرنا عدم البقاء في هذا المكان لأطول من ذلك، فحضّرنا الطّعام من زادنا وحزمنا بعضاً من أمتعتنا وبدأنا بالبحث عن مخرج إلى الشّارع. مشينا في الشّارع وكان الحراس ينظرون إلينا ويهمسون فيما بينهم دون أن يوقفونا. وفجأة تبعنا خادمنا الذي لم نره حتى الآن وحذّرنا من المغادرة وأن الحاكم يريد التحدث إلينا في الحال.

بدأت بالاحتجاج ولكن في النّهاية ذهبنا إلى هناك وكم كانت المفاجأة كبيرة عندما وجدنا بانتظارنا غرفة نظيفة مع أثاث رائع وطعام جاهز على الطّاولة. جاء الحاكم واستقبلنا بكل تهذيب وسألنا عن أحوالنا وعن صحتنا، فكظمنا غيظنا وأجبناه باللغة العربية بأننا بخير وتمنّينا له الصّحة. دعانا بعد ذلك إلى طعام الفطور ولم يدع لنا مجالاً للرفض. كنا نتساءل: ماذا سيحدث بعد ذلك. بعد أن شرحنا له سبب قدومنا وأننا نريد بيع بعض الكتب للناس والتحدّث عن الدّين، أجابنا بأنه يسمح لنا بالمكوث في غرفة الموظف المسؤول عن الميناء شريطة ألا نبيع الكتب، وسيرافقنا حارس أينما ذهبنا.

كان باعتقاده أننا سنتعرض للأذى إذا لم نكن بصحبة حارس، وبما أنه لم يسبق للقوم هناك أن رأوا مسيحيين، وسيكون من الصّعب علينا بيع الكتب المقدسة لهم لأنهم جميعهم في هذا الجزء من جزيرة العرب من المسلمين المتشدّدين. شكرناه على لطفه وقبلنا اعتذاره عن سجن الطّيور الذي أمضينا ليلتنا فيه، وغادرنا منزله وبدأنا السّير في الشّارع. تبعنا الحارس، ولكنه تركنا عندما قلنا له إننا لن ندفع له مالاً لقاء خدماته. وهكذا أصبحنا أحراراً في هذه المنطقة المتشدّدة الخالية من القوانين التي تحكمها الإمبراطورية التركية.

15 - مدرسة ثمرة البلوط

من المؤكد أن مدارس الأطفال المسلمين وكتبهم تبدو مملة إلى حدّ كبير بالنسبة للأطفال الأميركيين. ولكن الطّفل العربي يحبّ المدرسة لأن هناك دائماً أشياء تسترعي انتباهه، وخصوصاً إذا كان الأستاذ صاحب دكان. عندما يساومه النّاس على سلعة أو يمرّ به موزعو المياه أو ساقي القهوة لتقديم الفنجان اليومي، أو عندما تكون المعلمة امرأة، ويأتي الزّبائن، فإن العيون والآذان تنفتح على المحادثة والمشاهد الدّائرة وليس على الدّروس المعطاة.

الكتاب الوحيد والأول الذي يُدرّس هو القرآن أو أجزاء منه مطبوعة على أوراق. ولا يُسمح باستعمال الصّور عند تعلّم مبادئ القراءة، لأن التقاليد الإسلامية تقول إن محمّداً لعن كل إنسان يرسم شخصاً أو حيواناً. ولا أناشيد عند الدّخول إلى المدرسة. وحسب عقيدتهم الدّينية: «إن الغناء أو سماع الأغاني يجعل النفاق ينمو في القلب كما يجعل المطر الذرة تنمو في الحقول». وليس للمدرسة بناء محدّد، فقد تكون في ركن من أركان المسجد أو في فناء منزل المعلم أو جزء من متجره (إذا كان تاجراً). كما لا يوجد أثاث، ما عدا سجادات صغيرة، وحوامل للكتب. يجلس الأستاذ بين الصّبية على الأرض، يدندنون جميعهم الدّروس بصوت واحد. ولا توجد درجات ولا حتى ترتيب في الصّف. من الممكن أن ترى صبياً يدرس الأحرف الأبجدية بينما زميله يعدّ أرقام الحساب وثالث يقرأ السّورة الأولى من القرآن وآخرون يقرؤون من وسط الكتاب بأعلى أصواتهم. يجب أن يبدأ الطّفل بالتعلم عندما يبلغ أربع سنوات وأربعة أشهر وأربعة أيام. في هذا الوقت يتم تعليمه «بسم الله» أو فاتحة الكتاب وبعد ذلك يتمّ إرساله إلى المدرسة لتلقي الأحرف الأبجدية.

عندما يُتمّ الطّفل قراءة القرآن بكامله لأول مرة وعندما يتعلم أساسيات الكتابة، يتخرّج من المدرسة الابتدائية ويحصل بهذه المناسبة على عطلة نادرة. يلبس الطّفل الملابس الفاخرة، وربما يمتطي فرساً، فيزور الجيران ويتلقى الهدايا والحلويات ويحضر هدية لائقة لأستاذه. وإذا لم يكن في نيّته أن يصبح أستاذ دين أو طبيب أعشاب، تكون هذه نهاية أيام دراسته، فيتعلم مهنة أو يساعد أهله في عملهم.



ولد من مكّة

أما بالنسبة إلى التوجيه الأخلاقي، فإن التقاليد تأمر المسلمين الأتقياء بتعليم الصّبي ذي السّبع سنوات كيف يؤدّي الصّلوات الخمس اليومية؛ وفي سن العاشرة، إذا لم يمتثل لذلك، يحثونه بضربة خفيفة. يتعلم الأولاد في وقت مبكر كيفية التحدث والتصرف وفق الآداب الشّرقية، كما يتعلمون أيضاً

الطّهارة والطّريقة الصّحيحة للعبادة، لكن النّقاء والصّدق في الحديث نادراً ما يُدرّسان بالإرشاد التلقيني، ولا يدرّسان أبداً بالقدوة [71].

يتم تعلّم الكتابة على لوح خشبي أو دفاتر من صنع الأستاذ نفسه. أما أقلام الرّصاص فهي غير معروفة، بل يبدأ الطّفل الفتي باستعمال القصبة والحبر. لا يُعدّ خط اليد علماً فقط ولكنه فن رفيع في هذه المنطقة من العالم التي يمقتون فيها الرّسم والنّحت والموسيقى. إن الكتابة بخط جميل باللغة العربية هو هدف كل تلميذ في المدرسة.

إن المناطق التي تحوي مدارس من هذا الطّراز لا يمكن لها أن تتقدّم. لذلك ينشئ المبشرون مدراس لتعليم التلاميذ وتنمية عقولهم وقلوبهم.

فتحت المدرسة المسيحية الأولى أبوابها في شرق جزيرة العرب في عام 1899 في أحد شرفات منزل تبشير قديم يطل على البحر. كان أبناء أمين الذي كان في السّجن بسبب معتقداته، يعيشون معنا في منزلنا مع والدتهم، وكانوا بحاجة للتعلّم؛ كما كان هناك شابان أُنقذا من الرّق وجاءا من مَسْقط ليساعدا في أعمال المنزل، وكان لديهما بعض ساعات الفراغ في الصّباح ومن الأفضل لهما أن يدرسا بدلاً من الجلوس دون عمل، إذ يجد الشّيطان فرصة لغواية الأيدي العاطلة عن العمل في البحرين، وبذلك افتتحت المدرسة الصّغيرة من أجل هؤلاء.

أطلقنا عليها اسم «مدرسة ثمرة البلوط» تيمّناً بالقول: «إن أشجار البلوط السّامقة تنمو من ثمرة صغيرة»، ليصبح التعليم يوماً ما في جزيرة العرب كما هو الآن في أميركا. كنا نعطي دروساً لمدة ساعتين كل صباح للأطفال الصّغار بالمشي والغناء، وغير ذلك، بينما كانت الطّفلة بيسي Bessie تنام أمامنا على الأريكة والأولاد يتعلمون. كان هناك آخرون يتمنّون الانضمام إلينا ولكن لا المكان ولا المقدرات كانت تسمح لنا بتوسيع نشاطاتنا في ذلك الوقت.

بعد أشهر قليلة انتُدب معلّم عربي ليعلّم أحد المبشّرين اللغة العربية، ومنذ ذلك الوقت انتقلنا إلى بناء أكبر وازداد عدد الأولاد. بين الأولاد الأوائل كانت هناك بنت يهودية؛ وكذلك كان هناك صبي يهودي [72]، لازمنا مدة ثلاث سنوات وكان في غاية الأدب والذكاء، ولقد أتقن اللغة الإنكليزية والعربية. وكان لديه إنجيل كامل باللغة العربية يقرؤونه في منزله. أما الفتاة فكانت عوناً كبيراً لنا في كثير من الأوقات أولاً في المدرسة، ثم في المستشفى. كانت فتاة متميّزة ومتفوقة ونحن متأكدون أنها يوماً ما ستعترف علناً بعيسى المسيح وتتّبعه. كان هناك بعض الأولاد الأكبر سناً ضمن هذه الدّفعة الأولى الذين جاؤوا لدراسة الإنكليزية. كان أحدهم تلميذاً لامعاً أُخذ مع فريق العملاء

السّياسيين البريطانيين ليعمل كمترجم عند اللقاء بالفُرس، والآخر تقدّم إلى درجة أنه أصبح قادراً على البيع والشّراء، لذلك كان السّاعد الأيمن لوالده الذي يعمل بالتجارة في البحرين. تعلم هؤلاء الأولاد الحقيقة مع تعلمهم اللغة الإنكليزية، ولا أحد منهم يعتقد الآن «أن الشّمس تغرب في بحيرة سوداء من الطّين [73]»!

لقد انعكس علمهم على بيوتهم، وغيّروا بعض العادات وطريقة الخطاب. إن بعضاً من هؤلاء التلاميذ الأوائل قد انتقلوا إلى الدّار الآخرة. وكان عدد من المبشّرين والمتطوعين يساعدون في التدريس من وقت لآخر وعندما يترك أحدهم العمل يشغل مكانه واحد آخر. ولقد تعلّمت البنات في السّنوات القليلة الأخيرة الخياطة وتعلمن كيف يصنعن لأنفسهن أثواباً أنيقة.

هناك أعداد كبيرة من المسيحيين واليهود، ولكن العدد الأكبر كان من المسلمين وخصوصاً في الطّقس الجيد. ولكن عندما يبرد الطّقس فإن غرفة التدريس الصّغيرة تصبح مكتظة بالأولاد وكان الأستاذ يعمل على إعطائهم نشاطات مختلفة. كانت المدرسة في مراحلها الأولى ولكنها أثبتت جدارتها، وعندما ننظر إلى الوجوه المضيئة المجتمعة من أجل العلم ونسمع أجزاء من الكتاب المقدس والتراتيل المغنّاة نستطيع القول: «ماذا فعل الله»! بالنسبة للناس في الخارج كانت المدرسة شيئاً ضئيلاً ولكن بالنسبة لنا، نحن الذين واكبنا تقدّمها البطيء، نجدها أمراً مشجعاً. كان التدريس دائماً يركّز على احترام المسيح في بلد يُعدّ لقب «ابن الله» فيه أمراً يستدعي أشدّ الخلاف.

إذا نظرت إلى بناء المدرسة والتلاميذ لدينا فإنك تستطيع أن ترى الاختلاف بين الأولاد الذين يرتادون المدرسة المسيحية وبين أولئك الذين لا يزالون يذهبون إلى المدارس المحلّية. تدخل الشّمس من النّوافذ إلى الصّفوف المليئة بالمقاعد المرتبة والألواح والخرائط والصّور، كلها وسائل مساعدة للتعليم. يُفصل الأولاد عن البنات وجميعهم يتمّ تقييمهم بدرجات، والتعليم المختلط ليس محبّذاً هنا في جزيرة العرب. عندما كنت أقوم بالتدريس، كنت أفاجئ البنات بين الفينة والأخرى بإحضاري بعض الفاكهة والحلويات والتّمور. وكم أتمنى لو أنكم تستطيعون سماع الطّريقة التي يشكرنني بها، وتسمعونهن كيف يردّدن الأغاني اللواتي تعلمنها وهنّ في طريقهن إلى منازلهن يرتّلن الأناشيد باللغة العربية. كنّ يعتقدن أنهن سيسعدنني بذلك. وكان جميلاً سماع الأولاد الصّغار والبنات يغنّون:

My faith looks up to thee", "Jesus loves me, This I know, "etc".

إنهنّ بالطبع لم يكنّ يعلمن معنى هذه التراتيل بعمق، ولكنهنّ سعيدات بأنهنّ يستطعن إنشادها، وبأنهنّ عندما يرتّلن يكنّ محميات من الأذى. كان

جديداَ على أولئك البنات أن يعرفن أن أحداَ يهتم بهن.

16 - قصة لفافة الضماد

كان الطّقس حاراً [74]، وكنت في غاية التعب، والحشرات تطنّ من حولي وكان من المستحيل أن أبقى صاحياً. أفلت الكتاب من بين أصابعي ووقع على الأرض. تمدّدتُ لأنال قيلولة الظهيرة التي، على الرّغم من الحرّ والذباب، تنعش حياة المبشِّر وتجعله جاهزاً لأداء عمل بعد الظهر، وعندما استغرقتُ في النّوم شاهدت هذا الحلم.

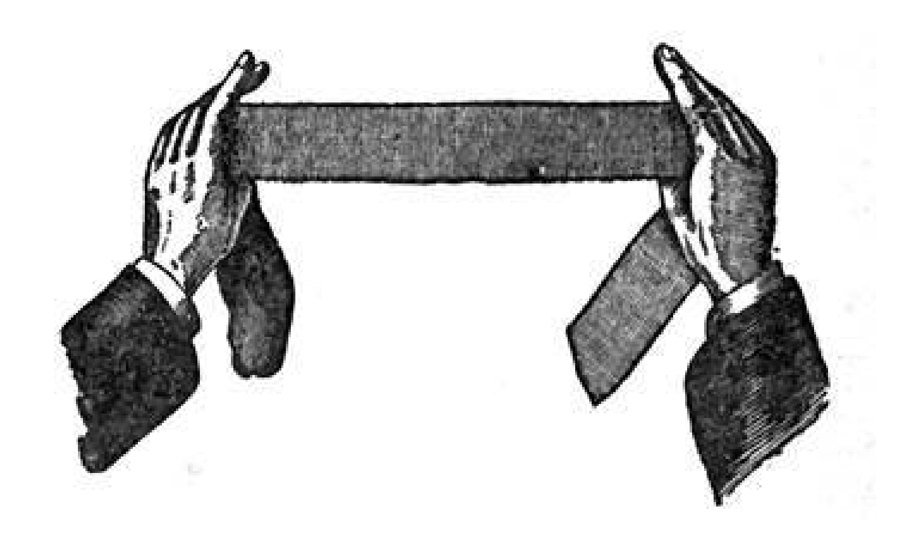
كنت أسير إلى المستشفى التبشيري، وفجأة التقيتُ على الأدراج بلفافة ضماد تنزل باتجاهي وهي في غاية السّعادة. وبعد تبادل التحية العربية "Salaam" (سلام) أخبرتني هذه القصة:

«أعتقد أنكِ لم تسمعي بي بعد، وإنني على يقين أنك لن تتعرفي عليّ إلا إذا أخبرتك قصة حياتي القصيرة والممتعة.

«إن جسماً مكتنزاً مثلي لا بد أن يكون له قصة طويلة ليخبرها. عندما أتمدّد يبلغ طولي أربعة ياردات دون زيادة أو نقصان.

«منذ ستة أشهر حسبما أذكر، كنت جزءاً من قطعة موسلين في أحد المتاجر لا اسم لي ولا مكان ولا مهمّة لي في هذا العالم الواسع. في يوم من الأيام أخذني البائع من على الرّف وأرسلني مع مشتريات أخرى إلى منزل سيدة (أظن أنها تدعى فيبي Phoebe أو دوركاس Dorcas) لها اهتمام كبير بالإرساليّات إلى الخارج.

«الأمر التالي الذي أذكره، هو أنّ الأيدي والأصابع الماهرة أخذتني لمجموعة من الشّبان وفرقتني عن أخواتي السّبع ولفتني بإحكام وقوة حتى أنه لا أحد يستطيع أن يتنبأ أنني كنت قطعة قماش. بعد ذلك تم تعليق مشبك لامع على صدري، وأحسستُ عندها بالأهمية. في اليوم الذي تلاه، وُضعت في علبة من الكرتون المقوى مع ثلاث دزينات من لفائف الضمادات وسمعت صوت صلاة عندما أُحكم الغطاء فوقنا، ليباركنا الله في رحلتنا إلى جزيرة العرب القاتمة.



«سوف تخونني الذاكرة إذا أردت أخبارك كم من الوقت أمضينا في قبو بناء هيئة الإرساليّات الأجنبية Board of Foreign Missions ليتمّ وضعنا في ركن صندوق كبير، لقد تعلّمتُ أموراً في غاية الأهمية من الأشخاص الذين كانوا يتحدّثون عن أتباع محمّد عندما كانوا يوضبون البضائع المختلفة المعدة للتبشير. أتعلمون، لم أكن أعلم أن الكثير من الأطباء والممرّضات والمستشفيات والمستوصفات وحتى المدارس وأشياء أخرى هي تحت رعاية هيئتنا.

«في النّهاية أُخذ الصّندوق - الذي كان سجناً لي لمدة شهرين طويلين - وألقي في عربة لينقل إلى ميناء النّهر الشّمالي. هناك حُملنا إلى مكان مظلم من سفينة؛ ربطنا البحارة جيداً وأطلقت صافرة الانطلاق في رحلة طويلة.

«بما أنني لفافة ضماد منذ نعومة أظافري، لم تزعجني حركة المركب؛ لكن بعض اللعب وبطاقات الصّور كانت منزعجة.

«عندما وصلنا إلى بومباي، تم تحويلنا إلى سفينة أخرى (بعد إحداث ضجة غير ضرورية) متجهة إلى الخليج العربي. كنت حينها بغاية الفضول لمعرفة في أي خليج سنرسو. لكن لفافة الضماد الكبيرة أخبرتني بأنها سمعت السّيدة الأميركية من نيويورك تقول إن هذه الضمادة هي لمستشفى مايسون Mason Memorial في البحرين في جزيرة العرب.

«قالت ضمادة متعدّدة الذيول إنها ظنت أننا سنذهب إلى البصرة للمساعدة في المستوصف هناك، لكن الضمادة التي على شكل حرف T والتي لديها نهايات ثلاث تشبه حرف T الكبير خالفتها، وبدأ شيء يشبه السِّجال. أما الضمادات الصّغيرة ذات الثّنية الواحدة فقد هدأت الوضع بقولها «انتظروا وسترون».

«كانت لفافة الضماد الكبيرة على حق. وعندما دخلت السّفينة البخارية الإنكليزية الهندية إلى خليج البحرين بحمولة كبيرة من الأرز والشّاي وبضائع مختلفة من مانشستر، اختلطت صناديق التبشير مع الصّناديق الأخرى تمّ حملنا من ظهر السّفينة إلى قوارب محلية.

«جلبة كبيرة وصياح! كنت أعلم أننا بين العرب في أرض إسماعيل، مع العلم أنني لم أفهم شيئاً من كلامهم الغريب.

«من فوق القارب تمّ حملنا على ظهر حمار عبر المياه إلى غرفة الجمارك وبعدها من جديد إلى المستشفى. لن أستطيع القول إنني تمتّعت بركوب الحمار. إن الصّبي الذي كان يقود الحمار له طريقة غريبة في الانعطاف بزوايا حادّة عبر الطّرقات الضيقة، وكانت الحمولة الكبيرة ترتطم بالجدار الحجري، مما سبب لنا ارتجاجاً مريعاً.

«لكنني شعرتُ براحة كبيرة عندما سمعت صوت أصدقائنا الجدد. بعد قليل فُتح الصّندوق واستطعنا رؤية ضوء النّهار ثانية. وضعت الأغطية والملاءات للاستعمال مباشرة في الجناح العام؛ ووُضعت الألعاب بعيداً حتى يحين عيد الميلاد؛ أما نحن فقد أُخذنا إلى غرفة العمليات ووضعنا خلف الزّجاج على الرّف. ومع أني لا أملك عيناً، فقد استطعت رؤية أننا في المكان الأكثر أهمية في المستشفى، واستطعت سماع إحدى السّيدات تقول: «هذه الضمادات هي من النّوع الجيد».

«لكم أن تتخيلوا أننا أبقينا عيوننا وآذاننا مفتوحة بعد هذا الترحيب. حسناً كان هذا الترحيب رتيباً. كل يوم تقريباً كان الطّبيب يضع بعض ضمادات العيون على الطّاولة وبالتالي فقد اكتسبت أهمية كبرى، بينما كنا ننتظر بفارغ الصّبر.

«في أحد الأيام، جاءت ممرضة مسرعة وسحبتني من على الرّف من عنقي وأخذتني دون احتفال إلى الجناح العام، وهو غرفة كبيرة فيها اثنا عشر سريراً.

«على الحمّالة في وسط الغرفة على الأرض كان هناك عربي بثياب رثة وكان يبدو عليه الوهن والألم. سمعت قصته. اسمه أحمد بن هارون، وكان صياداً فقيراً من قرية بعيدة تدعى الزلاّق Zillag. إنها قرية صغيرة فقيرة في جزيرة البحرين، ذهب إليها المبشرون برحلاتهم المتعرجة ليبيعوا الكتب المقدسة أو ليأخذوا المرضى إلى المستشفى. في اليوم الفائت وبينما كان يصلح شباكه ويجمع السّمك، جاء قاطع طريق، طعنه في بطنه مرتين وأخذ غلّته من الأسماك ثم فرّ بعيداً.

«لدى الرّجل المسكين طعنتان عميقتان في غاية الخطورة. سمعتهم يتحدثون وهم ينظفّون الجرح بأنه ربما لن يجتاز هذه الأزمة. وعلى الرّغم ممّا

كان يبدو عليه من الجهل والكدر، فقد حزنتُ على هذا المسكين، وتساءلت فيما لو كنت أستطيع تقديم المساعدة! عندما جاء الطّبيب ليضمّد الجرح، جاء دوري. في الحقيقة أن لي أدوراً هامة. في خلال خمس دقائق لفوني عدّة مرات حول جرح هذا العربي المسكين. ليتكم ترون مدى الامتنان الذي كان بادياً على وجهه عندما فتح عينيه ووجد نفسه يرتدي قميصاً نظيفاً في سرير معدني جيد وبصحبتي أنا. كان الأمر يستحق هذه الرّحلة الطّويلة. كُتب فوق السّرير اسم المريض وعليه الرّقم 109. كان هناك أيضاً خطوط غريبة متعرّجة تُرسم صباحاً ومساءً على الجدول البياني. شاهدتُ الطّبيب يضع الخطوط، بعد وضع ميزان الحرارة في فم المريض. كنت أعلم من عدّ دقات قلب مرافقي إذا كان الخط سيتجه صعوداً أم نزولاً. بالطبع لأنني ملاصقة له، تعلمنا محبة بعضنا البعض، لذلك شرحُت له كيف أن القوم في أميركا أرسلوني لأكون مبشّرتهم الصّغيرة ولأشعره بالراحة. في الطّرف الآخر من الغرفة عُلقت صورة المسيح وهو يشفي أحد العميان، لقد تعوّدنا النّظر إليها.

«لقد صلُّوا للرقم 109 وقرؤوا بعضاً من الكتاب المقدس. لكنني أظن أنه فهم منّي ما قلته له بشكل أفضل. قبل أن يصاب كان يرتاب بالمسيحيين ويصدق كل الأشياء التافهة التي قيلت عنهم. أما الآن فقد بدأ يتكلم مع المرضى الآخرين في الغرفة ويراقب ما يقدَّم له، وكان يشعر بوجودي بقربه؛ لقد بدأت حياته من جديد. أخذت حالته بالتحسّن كل يوم؛ علمتُ ذلك من طريقة تمتعه بأكل الحساء، بالإضافة إلى أنني كنت معه طوال الوقت. كان للضمادات الأخرى دورها وسمعت منها بقية القصة. لقد تعافى أحمد بن هارون وخرج من المستشفى في أول يوم من شهر الصّيام لدى المسلمين. كان يأتي للزيارة كل حين، وعاد إلى عمله كصياد سمك. ولا بدّ أنه، وهو يُعد شباكه في الزلاّق Zillag، كان يتذكر دائماً ما رآه وسمعه. والمبشّرون على تمام الثّقة بأن هذه القرية سترحب بهم من الآن فصاعداً.

«عندما انتهى عملي وودّعتُ مريضي التقيت بكثير من الضمادات في الأسفل في غرفة العمليات؛ كانت لا تُحصى! أُحضر كثير منها من أسواق البحرين دون تبييض ولكن بالطبع كان لديها قصص جيدة للسّرد. وعلمت من مصدر موثوق أنهم استعملوا أكثر من ألف ياردة من الضمادات في شهر واحد. وعندما شاهدتُ أعداد النّاس من رجال ونساء وأطفال يجلسون في إحدى شرفات المستشفى وهم يعانون من التقرحات والخرّاجات، لم يكن لدي شك في ذلك. فقط أود لو أستطيع إخبار البائع والسّيدة اللطيفة في نيويورك. عندها سيتواجد المزيد منا ولا أعتقد أنه من الصّعب على الشّبان والشّابات صنع المزيد.

«أشرفت النّهاية. بعد كل ما قدَّمته في المستشفى، حملني الخادم في دلو في الحاوية ودون اعتذار أو احتفال، ألقي بالكومة كلها في النّار، وصعدنا في الهواء بعربة كإيليا».

انتهت قصة الضمادة. وعندما نظرت إليها كنت أريد القول: «كيف استطعت الحضور إذاً وإخباري بالقصة وقد رُميتِ في الحاوية وأحرقتِ بالنار؟».. ولكن عندما بدأتُ بالكلام اختفت الضمادة واختفت المستشفى وصحوتُ من النّوم. لكن سجلات المستشفى تستطيع إثبات حقيقة قصة الضمادة بالتفصيل.

Oh, what can little hands do"

?To please the King of Heavens

The little hands some work may try

:To help the poor in misery

".Such grace to mine be given

«ماذا يمكن لتلك الأيدي الصّغيرة أن تفعل

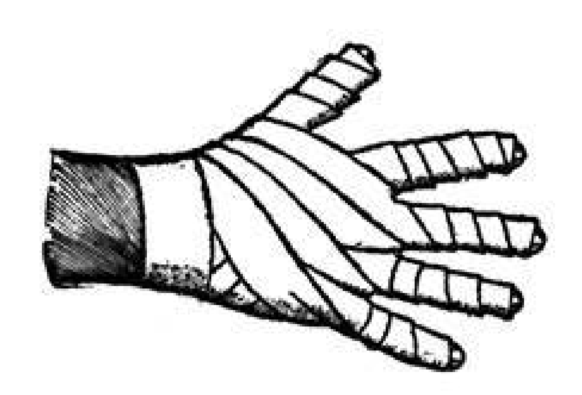
لترضي ملك السّماوات؟

يمكن للأيدي الصّغيرة أن تقوم ببعض الأعمال

لتساعد المساكين في شقائهم

مثل هذه الرّحمة مُنحت لي».

* * *



17 - آخر عيد ميلاد لنجمة

ولدت صديقتنا العربية الصّغيرة نجمة Najma في مكان بعيد عن آخر احتفال بالميلاد [75]، في مدينة بغداد حيث عاش سندباد وحيث يجري نهر دجلة. كان والدها ووالدتها من المسلمين الطّيبين، وكانت مولودتهما الأولى. لم يُرحَّب بقدومها كثيراً لأن المسلمين يفضلون ولادة الذكر على ولادة الأنثى. أسموها فاطمة تيمناً باسم ابنة النّبي محمّد. وبعد تعميدها بالدّين المسيحي مع أمها، أُطلق عليها اسم نجمة. عانى والدها من الاضطهاد بسبب تغيير دينه وأرسل إلى المنفى، لذلك هاجرت والدتها وإخوتها الصّغار على طول النّهر إلى البصرة ثم إلى الخليج العربي فالبحرين. كانت رحلة متعرجة طويلة في القارب الشّراعي النّهري ذي القاعدة المسطحة، ثم في سفينة المحيط البخارية، ثم في قارب الميناء الصّغير تدفعهم الرّياح إلى الشّاطئ.

عندما وصلت العائلة إلينا، لم يكونوا يعلمون شيئاً عن عيد الميلاد وبالطبع لم يحتفلوا به يوماً. وعندما حل عيد الميلاد الثّالث والأخير لنجمة كان لا يزال مناسبة سعيدة لها ولنا في هذه الجزيرة النّائية. اجتمعنا جميعاً للاحتفال بولادة المسيح. وكان الاحتفال الأخير بالنسبة لنجمة. كان هناك صوتان غضّان آخران يغنيان بعذوبة

?Where do all the daisies go"

!I know, I know

.Underneath the snow they creep, Drop their heads and go to sleep

.In the spring-time up they peep

",This is where they go

«أين تذهب أزهار الأقحوان؟

أعرف، أعرف!

إنها تزحف تحت الثّلج،

حيث تضع رأسها لتنام.

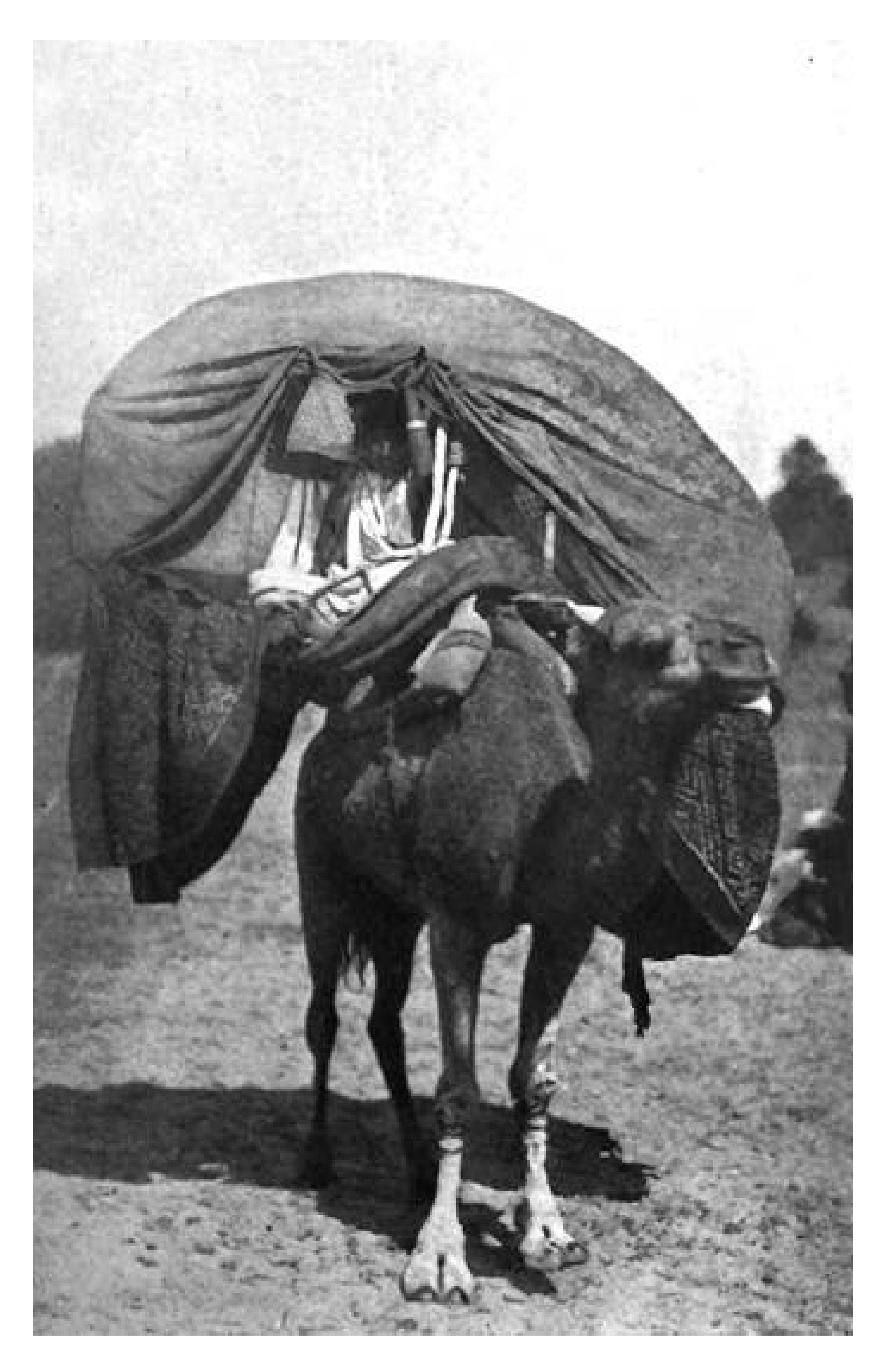
وبحلول الرّبيع تبزغ إلى الأعلى.

هذا هو المكان الذي تذهب إليه»،

صمتا قبل أن يحلّ عيد الميلاد التالي. كانت والدة نجمة تبدو متماسكة الأعصاب وهي جالسة بهدوء في إحدى زوايا الغرفة وهي تتبع بعمق مراسم الاحتفال والأغاني مع فردين آخرين انتقلا إلى الآخرة قبل نهاية العام الجديد.

كان الميلاد الأخير لنجمة. كنا منشغلين بتزيين الكنيسة الصّغيرة التابعة للمستشفى، ونحضّر الهدايا لاحتفال بعد الظهر. كانت نجمة متوعّكة لبضعة أيام خلت، كانت تعاني من هجمات الحمى الشّائعة في الخليج العربي. وعندما حل عيد الميلاد، توقعنا عدم حضورها بسبب توعّكها. لكنها أصرّت على الحضور وبأنها ستكون بخير، لذلك أرسلنا حماراً إلى منزلها حيث ألبستها والدتها رداء جميلاً براقاً وجاءت إلى المستشفى. كانت ضعيفة لكنها عندما جاءت مع الأطفال الآخرين تنشطت بشكل كبير وأبدت اهتماماً بكل شيء حتى بإنشاد التراتيل.

وعندما أنشد الباقون مقاطعهم، أصرّت على المشاركة ورتلت الجزء الواحد والخمسين بشكل رائع. انتظرت بعد ذلك حتى توزيع المشروبات، وكان هذا الجزء الأهم في الاحتفال، وتمنّت للجميع ميلاداً سعيداً ثم عادت أدراجها على ظهر الحمار إلى البيت.



فتاة تلعب «الغُمّيضة» على ظهر البعير

تمنّيتُ لو أنكم استطعتم مشاهدة شجرة الميلاد التي تم تزيينها. كانت مؤلفة من عدد كبير من أغصان النّخيل والهدايا تتوزع فوق أغصانها، هدايا قديمة وجديدة لكل الحاضرين. ربما يتساءل البعض عن غياب الدّمى، والسّبب هو أنهم في جزيرة العرب لا يسمحون بوجود الدّمى في بيوتهم لأنها تشبه الأصنام التي كانت تُعبد في الماضي. لذلك أعطينا الأولاد أوراقاً وأقلاماً، كتباً

وألعاباَ، خرزات وثياباَ جديدة وأكياس صغيرة مليئة بالأرز للتلاميذ الفقراء. كم كانوا سعداء بهذه الهدايا!

جمعت نجمة كل الهدايا التي أعطيت لها وأبقتها بجانبها طوال اليوم التالي وكانت في غاية السّعادة بها؛ ولكن في مساء ذلك اليوم دُعينا إلى منزلها لنجدها في حالة احتضار بسبب ضعف قلبها بعد أسبوع من الحمّى. كانت صدمة لنا جميعاً. كل إنسان عرف هذه الطّفلة أحبّها بالرّغم من هفواتها. لقد تعلّمت قراءة الإنجيل بصعوبة بالغة وكانت تشعر بالفخر لإنجازها إذ كانت البنت الوحيدة التي تجيد القراءة من بين الآلاف من الأطفال العرب. خسارة هذه الطّفلة المميزة كان أمراً محزناً، لكن الله لا يخطئ. كان العزاء الوحيد لنا أنها تمتعت باحتفال الميلاد قبل وفاتها. فكّروا بهؤلاء الأطفال في جزيرة العرب الذين يرقدون في المستشفى والذين احتفلوا بالميلاد للمرة الأولى ومنهم من لم يحتفلوا به بعد. لكن نجمة احتفلت عنهم جميعاً. لقد مضى إلى الآن ألف وتسعمئة سنة على قدوم المسيح إلى هذا العالم وهناك الكثير من الأولاد والبنات لم يسمعوا بقدومه.

إذا كنا نريد أن نربح العالم إلى جانبنا لا بدّ لنا من إخبارهم عن حياة المسيح وإعطاء كل واحد الفرصة لقراءة قصة حياته. هل تذكرون هذه المقاطع الجميلة من كلام الأب تاب Tabb بمناسبة أول ميلاد؟

"A little Boy of Heavenly birth And far from Home to-day, Comes down to find His ball, the earth, Which sin has cast away.

Come, comrades, let us one and all Join in to get Him back His ball."

«طفل صغير سماوي المولد

بعيد عن الوطن اليوم،

ينزل ليجد كرته، الأرض،

التي غرقت في الخطايا.

تعالوا يا رفاق، زرافات ووحداناً

نجتمع سوياً لنعيد إليه كرته».

18 - أولئك الذين لم يسمعوا أبداً

إذا أردنا نشر الإنجيل المقدس في أرض جزيرة العرب بكاملها، فلا بدّ لنا من القيام برحلات متعرّجة كثيرة. إن البلاد أكبر من أن تتخيّلها ولا يزال قسم كبير منها غير مستكشف بعد. لحسن الحظ، فإن هذا القسم غير المستكشف خال من السّكان حسب معرفتنا، لكن أحداً لم يذهب إلى هناك ليتحقق من ذلك. إذا سافرتم من نيويورك إلى شيكاغو على ظهر جمل ذهاباً وإياباً ستكون الرّحلة مساوية لقطع المسافة مرة واحدة عبر جزيرة العرب. هذه البلاد «رأساً على عقب» أكبر من تكساس كبرى ولايات الولايات المتحدة بثلاث مرات. إنها تعادل تقريباً مساحة الهند الإنكليزية باستثناء بورما. وإذا وُضعت خريطة جزيرة العرب فوق خريطة أوروپا، دون ثني الزّوايا، فإنها تغطي فرنسا، وبلجيكا، وهولندا، وألمانيا، وسويسرا، وإيطاليا، والنّمسا، وصربيا، ورومانيا، وبلغاريا.

إن سكان هذه المنطقة الصّحراوية وجميع القرى وضواحيها لا يتعدّون الثّمانية ملايين؛ وهذه الجزيرة الكبيرة وذلك الشّاطئ المترامي الأطراف والذي يبلغ طوله أربعة آلاف ميل له ثلاث منارات فقط لإرشاد السّفن العابرة في الليل. لذلك كان نور الإنجيل يسطع في أماكن قليلة من هذا الشّاطئ ويكاد يكون معدوماً في الوسط. في عَدَن، ومسقط، والبحرين، والكويت، والبَصرة وعلى طول النّهر إلى بغداد كان نور الإنجيل يسطع. وبالرغم من أن نوره كان كضوء الشّموع في سواد الليل، فإنك تستطيع رؤيته من بعيد. عندما يأتي المرضى من مئات الأميال إلى المستشفى فإنهم يخرجون وهم يحملون الإنجيل لمئات من الأميال إلى مدنهم وقراهم. مع ذلك ماذا تشكل محطات صغيرة كهذه في مساحة مترامية الأطراف، وماذا يستطيع أقل من أربعين مبشّراً فعله وسط تلك الأعداد الكبيرة من البشر؟ [76]

عندما عُقد اجتماع للمبشرين في إدنبرة عام 1910 كان التقرير عن طريقة نشر الإنجيل في كل البلاد غير المسيحية، وجاء التقرير أن «ضمن الثّمانية ملايين في جزيرة العرب نستطيع القول بكل أمانة إن ستة ملايين منهم ليس لديهم مؤسسات تبشيرية». يستطيع المرء أن يسافر من البحرين عبر أراضي البلاد لألف ومئة وخمسين ميلاً دون أن يجد مبشراً واحداً أو

مركزاً للتبشير على طول المسافة إلى عَدَن. وعلى طول ساحل البحر الأحمر وكذلك على السّاحل الجنوبي بين عَدَن ومسقط لا يوجد مركز واحد للتبشير. وبين المناطق السّت في جزيرة العرب، ثلاث فقط فيها مبشِّرون. ولم يدرِّس أحد حتى الآن الإنجيل في مكة حيث ولد محمّد أو في المدينة حيث دُفن، وبالرغم من أن تسعين ألف حاج يأتون من كل مكان من العالم الإسلامي ويمرّون بجدة كل عام في طريقهم إلى مكة، فإن تلك المدينة الهامة ما زالت تنتظر سفيراً من عيسى المسيح [77].

بالطبع إن أكثر الأشخاص المُهمَلين في هذه البلاد هم البدو. كقول إسماعيل: «يدُهم على جميع النّاس، ويدُ النّاس عليهم».

كان الكره متبادلاً بينهم وبين السّكان المحليين والأتراك، إذ أنهم غجر الشّرق الرّحَّل. أعدادهم كبيرة، وعُراهم القبلية وثيقة، وتستطيع رؤية خيامهم السّود المنتشرة في مخيمات واسعة وكأنها مدينة الظّلّات tabernacles في الصّحراء.

إن حياة الأطفال غريبة هناك. حياة مليئة بالمسرّات والأحزان ومشقات الصّحراء. يبصر الطّفل العربي النّور أول مرة تحت ظلال الخيمة السّوداء أو في ظل شجيرات الأكاسيا أو خلف أحد الجمال. عندما يولد تقدّم له والدته حماماً من الرّمال ويطلق والده عليه اسماً. وله الحرية بعد ذلك لفعل أي شيء. يتربّى الطّفل منذ ولادته على تحمل حياة التعب والجوع والخطر فينشأ خشناً جلفاً، لكنه يملك مكراً ودراية بكل أساليب الصّحراء وحياة القوافل.

لا يملك أطفال البدو لعباً أو كتباً. إنهم يلعبون بالجراد الميت أو عظام الجمال الجافة؛ يصنعون الصّفارات من أوراق نباتات الصّحراء، ويحبّون استعمال المقلاع كما فعل داود عندما قتل المارد بحصيّات من السّاقية. أما البنات فيساعدن أمهاتهن في جلب الماء، وصنع السّمن، وأخذ الجمال إلى المراعي والعودة بها. إنهن لا يستطعن القراءة وليس لديهن كتب مصورة، مع ذلك فإنهن يتعلمن دون انقطاع من الكتاب المصور للطبيعة، وإن عيونهن الصّغيرة الدّاكنة لا تهدأ أبداً، سواء كن يراقبن الأغنام في المرعى، أو عدّ النّجوم في السّماء وهنّ في مكانهن الشّامخ فوق قتب الجمل أثناء رحلاتهن الليلية.

في بعض أنحاء جزيرة العرب، تركب النّساء البدويات فوق سرج يدعى بالهودج، يحميهن من عيون الغرباء. ويلعبن أحياناً لعبة الغُمّيضة peek a boo بينما الجمل يتهادى في مشيته. إن الحياة هناك غير سعيدة لعدّة اعتبارات. يعتقد داوتي وغيره من الرّحالين إن أكثر من نصف السّكان البدو لم

يستمتعوا بوجبة كاملة. وعندما يسمعون من المسافرين الغربيين عن البلاد التي يتوفر فيها الخبز والملابس والسّلام والماء الغزير، يصابون بالدهشة ويلمسون الفرق بين ظروف حياة الأمم الأخرى وحياة البؤس التي يعيشونها. بعد أن استمع أحدهم إلى وصف داوتي رفع يديه إلى السّماء وأخذ يلهج بالدعاء ويقول: «يا الله، ارحم عبادك الذين خلقتهم! ترفق بالفقراء والجائعين والعراة. ارحمهم يا الله!» من يستطيع أن يعقب على دعاء البدوي بقول آمين؟ لا يمكننا أن نحكم عليهم بقسوة عندما نتذكر أنهم لم يحظوا أبداً بحظ جيد، وأنهم يعيشون لقرون طويلة شظف حياة الحرب والغزو.

لا زلت أذكر بكثير من الاهتمام يوم الأحد الذي جلست فيه في خيام «قيدار» Kedar السّود مع حشد من الأعراب. كانوا مضيافين، وأحضروا أوعية خشبية ضخمة من الحليب الطّازج والقشد يطفو على سطحه، والتمر المجفف والخبز المخبوز على الفحم؛ ثم، بعد أن شبعنا، استمعوا بتلهف وأنا أقصّ عليهم لأول مرة القصة القديمة لولادة المسيح، والموت والبعث. بلغ الجهل ببعضهم أنهم لم يسمعوا في حياتهم عن الصّليب، وأذكر أنني التقطت عودين من الأرض وأريتهم كيف صُلب مخلِّصنا لأجل خطايانا، كما ورد في الكتاب المقدس. لم يقم أحد بزيارة القبيلة في عُمان منذ رحلتي إليها قبل ثماني سنوات. كم سينتظرون هم وغيرهم مجيء المعلمين المسيحيين؟ هل سيملك الأطفال البدويون فرصة أفضل من تلك التي أتيحت لأمهاتهم؟

إن لتلك المناطق ممالك وحكومات تُحرس حدودها ويُحظر اجتيازها دون تصريح، لكن مملكة عيسى المسيح ليس لها حدود أو حواجز. إنها تقدّم رسالتها إلى الجنس البشري بأكمله، وفي الواقع هناك ملايين من النّاس في قلب جزيرة العرب لم يسمعوا أبداً، مما يلقي على عاتقنا مهمة نقل الرّسالة إليهم. ينبغي ألا تعيقنا الصّعوبات والأخطار، فإنها لم تعق المسيح عندما قام برحلته الطّويلة في عالمنا الضالّ. إنه يعتمد علينا في متابعة عمله، كما هو مكتوب: "They shall see to whom no tidings of Him came, And they who have not heard shall understand."

«سوف يرون إلى من لم تأت بشائره،

والذين لم يسمعوا سوف يفهمون».

* * *

"O Zion, haste, thy mission high fulfilling, To tell to all the world that God is Light; That He who made all nations is not willing One soul should perish, lost in shades of night.

Publish glad tidings; Tidings of peace; Tidings of Jesus, Redemption and release."

«يا جبل صهيون، أسرع وأنجز مهمتك عالياً،

لتخبر العالم كله أن الله هو النّور؛

بأن الذي خلق الأمم كلها لا يريد

أن تهلك نفس واحدة وتضيع في غياهب الظلام.

انشر البشائر السّعيدة؛

بشائر السّلام؛
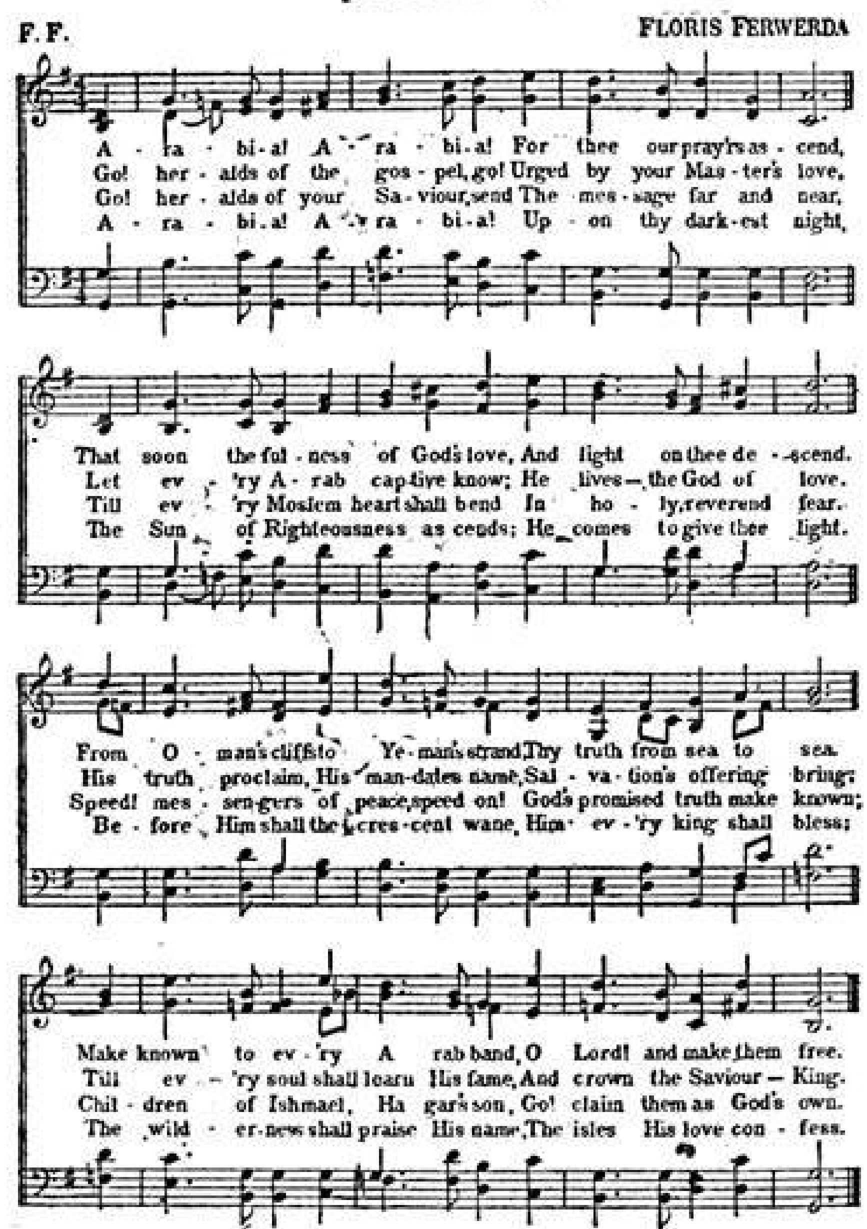
بشائر المسيح،

لإعتاق البشرية وخلاصها».

IN THE CAMEL COUNTRY

A R A B I A

ARABIA



أنشودة جزيرة العرب

---

[1] يريد بهم المشعوذين Magi الذين بحسب رواية إنجيل متّى جاؤوا إلى بيت لحم لرؤية المسيح عليه السّلام إبّان مولده، مهتدين بنجم لامع ظهر مؤذناً بولادته.

[2] عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

[3] عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

[4] لاحظ الدّس المغرض، كان الأولى به احترام تراث البلاد وثقافتها دون تدخل. غير أن الأعوام الأربعة عشر التي قضاها في جزيرة العرب كانت كفيلة بالردّ عليه، إذ فشلت مهمّته فشلاً ذريعاً، وحسبه أن يُذكر بالثناء على خدماته الطبيّة والتعليميّة.

[5] عليه أطيب الصّلاة والسّلام. أما عن عليّ حفيد الرّسول فهذا كلام غير دقيق، ولعله يريد زين العابدين عليّاً بن الحُسين رضي الله عنهما.

[6] خاب فأل زويمر وسقطت أوهامه ومزاعمه، فدين الإسلام الحنيف أينع وأثمر في أرض الخليج المباركة، وما برح حتى يومنا هذا عنواناً للسموّ والحضارة والتسامح، ويعطي للدّنيا بأسرها مثالاً (في دولة الإمارات العربيّة المتحدة خصوصاً) كيف ينظر المسلمون بمنطق التفاهم والتعاوين والتعايش السّلمي مع شعوب الأرض، ويتبادلون معها العلم والعمل والخير لمصلحة الجميع. فهذا هو الإسلام الذي لم يفقهه زويمر.

[7] ذهبت جهود زويمر ومن قبله المبشّر البريطاني فوردر أدراج الرّياح، فالسّاعي إلى التبشير بأرض الجزيرة مهد النبوة والرّسالات كمن يقصد الفُرات بقربة ماء.

[8] عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

[9] ومن أخصّهم اللغوي الفرنسي يوسف هَليفي، والنّمساوي إدوارد غلازَر والألماني ليو هيرش. ولقد ظفرتُ مؤخراً من أميركا بنسخة نادرة جداً لكتاب يروي وقائع رحلة ومغامرات هَليفي في اليَمَن، ألّفه دليله اليمني حاييم حبشوش وطُبع في القدس الشريف عام 1941. ولا ريب أنّ هذا الكتاب الثمين سيكون أحد أجزاء سلسلتنا الحاضرة معرّباً، وسنرى له تداعيات مهمّة للغاية في بحثنا القادم: «الخليج العربي، مهد الحضارة القديم».

[10] هذا هُراء، فالمعلومات التاريخيّة وأنساب الشعوب الواردة في التّوراة حافلة بالأغاليط والتشويش، والمصدر الحقيقي لإعادة تدوين التاريخ القديم لجزيرة العرب ينبغي أن يستند اليوم إلى أربعة مصادر وثيقة: النقوش القديمة، والمعطيات الماديّة لعلم الآثار، والدّراسات الفيلولوجيّة المقارنة للغات القديمة وما يتفرّع عنها من علمي الإثيمولوجيا والتويونوميا، ثم أخيراً أنطولوجيا (مرويّات) المؤرخين القدامى من إغريق وسواهم. وهذا بالضبط ما سأقوم به في بحثي القادم: «الخليج العربي، مهد الحضارة القديم».

[11] هذا كلام غير صحيح، فيهود اليَمَن لم يأتوا إليه من أيّ مكان لسبب بسيط: أنّ اليهوديّة نشأت في حضرموت في شمالي اليَمَن على تخوم صحراء الأحقاف، وكانت لهم فيما يبدو منافسة وعداوة مع بني كنعان المجاورين لهم في عُمان ومنطقة وسط الخليج العربي، فحفل تراثهم الشفاهي القديم بدعوى الاستيلاء على أرض كنعان الخصبة (حتى بعدما هاجروا إلى فلسطين ولبنان). ومن خلال دراسة الأسفار الباكرة في التّوراة، نجدها تحفل بتراث يمني صرف من الأحداث والوقائع وأسماء الأشخاص والشعوب والأماكن، وبخاصة فيما يتصل بسيرة الملك سُليمان. وهذا كله سأطرحه للمرة الأولى مفصلاً في بحثي: «الخليج العربي، مهد الحضارة القديم».

[12] ذكرنا أعلاه أن هذا الكلام مغلوط، فاليهود لم يفدوا إلى اليَمَن مهاجرين، فأصولهم الأولى تعود إليه. وسنعود إلى هذا المبحث بالتفصيل في دراسة قادمة.

[13] هذا كلام صحيح، فكما ذكرنا أعلاه أنهم كانوا أصلاً في اليَمَن ولم يأتوا إليه من أيّ مكان آخر. وفلسطين ليست أبداً موطنهم الأول الذي خرجوا منه.

[14] عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

[15] كان الأجدر بزويمر رواية القصة من وجهها الصحيح بذكر عداوة بني النّضير وبني قينقاع للرّسول عليه الصّلاة والسّلام، ثم خيانة بني قريظة إبّان غزوة الأحزاب. لكن من الواضح تعاطفه مع اليهود لكون عائلته يهوديّة الأصل.

[16] ذكر ابن الأثير وغيره أن يهود خَيْبَر كانوا مظاهرين ليهود غطفان على رسول الله، وأنَّ غطفان قصدت خَيْبَر ليظاهروا اليهود فيها، ثمّ خافوا المسلمين على أهليهم وأموالهم فرجعوا. وكان المسلمون في هذه الغزوة ألفاً وأربعمائة، ومعهم مئتا فرس، فلمّا نزلوا بساحتهم لم يتحرّكوا تلك الليلة حتّى طلعت الشمس، وأصبح اليهود وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعمالهم. فلما نظروا إلى رسول الله قالوا: محمّد والخميس (أي الجيش) وولّوا هاربين إلى حصونهم، فقال رسول الله: «الله أكبر، خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المنذرين». فحاصرهم بضع عشرة ليلة، وكان أوّل حصونهم قد افتتح هو حصن ناعم، ثمّ القموص، ثمّ حصن الصّعب بن معاذ، ثمّ الوطيح والسّلالم، وكان آخر الحصون فتحاً حِصْن خَيْبَر.

[17] عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

[18] هنا يتضح الوجه الآخر الذي تلطّى وراءه العديد من المبشّرين في المشرق: ألا وهو دعم اليهود لتأسيس دولة لهم على أرض العرب.

[19] يولي الكاتب اليهود اهتماماً أكبر من مجرّد موضوع لفت انتباهه كرحّالة غربي، والسبب في ذلك واضح تمماً، وهو كونه ينتمي لعائلة ذات أصول يهوديّة.

[20] هذا قول يحمل الكثير من الخلاف، وهذه التّمائم على أيّ حال من بقايا الجاهليّة، وكانت في مشرقنا العربي بأيّام زيارة زويمر شائعة ومنتشرة مع الأسف، لكنها زالت إلى حدّ كبير وإن لم يكن نهائياً.

[21] يُعرف هذا الشعر بدعاء «نادِ عليّاً»، وهو للشاعر عبد الله القرمزي.

[22] عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

[23] عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

[24] ليس هذا بصحيح، بل يُبشّر الحاج بمغفرة ما تقدّم من ذنوبه إن هو تاب عنها وأناب إلى الله تعالى.

[25] طيّب، قد حصل ذلك فيما بعد ولم يتغيّر في الأمر شيء، وها هو ذا الإسلام ما زال قوياً معافى، وما برح النّاس من أقصى الأرض إلى أقصاها يدخلون في هذا الدّين ويقصدون مكّة المكرّمة بالحج في كل عام، فأين هي قاطرات زويمر وأحلامه؟

[26] بل معنى الاسم بالعربيّة: المطمئنة.

[27] عليه أطيب الصّلاة والسّلام، ومن الجميل أن زويمر يقرّ بأخلاق النبيّ وسجاياه التي لا يتمارى في سموّها إنسان.

[28] الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لم يقرّر ولم يخطط، بل نزل عليه الوحي بتقدير من الله سبحانه وتعالى، ليكون هدىً ورحمة للبشر أجمعين.

[29] عليه أطيب الصّلاة والسّلام.

[30] يا لسذاجة زويمر العجيبة.. الواقع أنه كان أفشل مبشّر في التاريخ، حيث أنه خلال 14 سنة أمضاها في حملاته التبشيريّة في البَصرة وشرقي جزيرة العرب لم يفلح في تنصير أحد. تتحدث المؤرخة روث تَكر Ruth Tucker أن العدد كان أقل من 12. انظر: Ruth A. Tucker: From Jerusalem to Irian Jaya: A Biographical History of Christian Missions. P. 241.

[31] آيون غرانت نيفيل كيث فالكونر (1856- 1887 م) Ion Grant Neville Keith-Falconer مبشّر اسكتلندي وباحث في التراث العربي، وبطل في رياضة الدّراجات.

[32] كورنيليوس ڤان آلن ڤانديك (1818- 1895 م) مبشّر ومستشرق أميركي ذائع الصيت، أقام في بيروت منذ 1840 حتى وفاته ودُفن بها. لمع اسمه بأمرين: إذ كان أول من فكّر (عام 1863) بتأسيس الجامعة الأميركيّة في بيروت (الكليّة البروتستانتيّة سابقاً) وتم ذلك 1866، ثم إنجازه ترجمة العهد القديم والجديد إلى العربيّة للمرّة الأولى عن العبريّة واليونانية. كان شغوفاً باللغة العربيّة إلى حدّ الوله، إلى حدّ أنه طلب أن تتلى الصّلاة عليه عند وفاته بالعربيّة.

[33] إيلاي سميث (1801- 1857 م) مبشر بروتستانتي أميركي وباحث، أقام في بيروت عام 1833 وقام مع إدوارد روبنسون Edward Robinson برحلتين إلى فلسطين، ليساعده في بحثه لتقصّي أسماء الأماكن الواردة في التوراة. كان أول من جلب مطبعة بحروف عربيّة إلى بلاد الشام. كان حلمه ترجمة الكتاب المقدّس إلى العربيّة، فمات دون ذلك، لكن ڤانديك تابعه من بعده وطبع بين 1860-1865.

[34] هكذا كان يُطلق على لبنان على اعتبار أنه جزء من سوريا جغرافياً، وعلى أي حال فكلاهما آنذاك في أواخر القرن التاسع عشر لم يكن دولة مستقلّة، بل كانا تابعين لحكم الدّولة العثمانيّة في أيام السّلطان عبد الحميد خان الثاني.

[35] لهذه التسمية قصّة طريفة يعرفها المعمّرون من أبناء البحرين الشقيقة، وهي أنّ البطاطس عندما قدمت إلى البحرين للمرّة الأولى من لبنان لم تكن معروفة ولا اسم لها، وكان أول مستورد لها شركة تتألف من شريك بحراني (علي) وشريك لبناني (وليَم) من البقاع حيث تُزرع، فكان يُكتب على الصناديق الواردة: (علي وليَم)، ولمّا كان تجار الخضار الهنود لا يعرفون اسم البطاطس، أو البطاطا كما تسمّى في لبنان (نقلاً عن الإسپانيّة patata) فقد راحوا يسمّونها: «علي ولّم» كما قرأوا على الصناديق، وانتقلت التسمية إلى السكّان وشاعت بينهم مدّة غير يسيرة.

[36] حذفت هنا من النص تجاوزات غير مقبولة من المؤلف.

[37] بن حور رواية تعود إلى عام 1880 تصوّر حياة المسيح عليه السّلام. حوّلت في عام 1950 إلى فيلم شهير من بطولة چارلتون هِستون. لكن المضك أن الاسم بصيغته الإنكليزيّة Ben Hur قد عُرّب: «بن هور»، رغم أنّ الشخصية المحوريّة هي لشخص خيالي اسمه يهوداه بن حور. فإن لم يكن في الإنكليزية حاء أليست في العربية؟

[38] بل مصدر الينابيع العذبة في الخليج العربي والمنطقة الشرقيّة هو من سيح المياه الجوفيّة القادمة من غربي جزيرة العرب إلى شرقيّها، حتى أنّ الغوّاصين عن اللؤلؤ كانوا يملؤون قرب المياه من ينابيع مياه عذبة تنبع تحت سطح البحر. وحول ذلك راجع كتابَي: «رحلات المغامر العربي» و«ارتياد جزيرة العرب» في هذه السلسلة.

[39] هذا كلام صحيح وذو قيمة كبرى، وسنرى في بحث قادم «الخليج العربي، مهد الحضارة القديم» أنّ أصول البابليين والكلدانيين وكذلك الفينيقيين كانت من السّاحل الأوسط والجنوبي للخليج العربي، أي من أراضي البحرين والإمارات العربيّة المتحدة اليوم. وسندعم هذا البحث الرّائد بالوثائق القديمة والمعطيات الفيلولوجيّة والأركيولوجيّة الدّامغة.

[40] هذا صحيح، والفريسة المثلى للقرش هي الفقمة ولونها أسود، لذا ينبغي للغوّاصين في المواضع التي يتواجد بها القرش اجتناب الألوان الدّاكنة.

[41] هو قطعة مصنوعة من عظم قرن الوعل أو من عظام السّلحفاة على شكل ملقاط، يثبته الغوّاص على أنفه ليحبس أنفاسه تحت الماء.

[42] يسمّى سمك القرش في الخليج العربي: الجرجور، وله عدّة أنواع يخشى منها الغوّاصون.

[43] وهي تُسمّى المفلقة، ولا تكون حادّة. أمّا مَن يقوم بعملية فلج المحار بالمفلقة فيدعى: الجلاّس (وتلفظ: اليلاّس).

[44] يروى الرحّالة الألماني هِرمان بورخارت في محاضرة له ألقاها في قاعة الجمعيّة الجغرافيّة في برلين عام 1906 عن تأسيس رجل الأعمال الألماني روبرت ڤُنكهاوس Robert Wönkhaus لمشغل حرفي لصناعة الأزرار من أصداف اللؤلؤ في البحرين، فكان أول منشأة تجاريّة ألمانيّة في الخليج العربي. انظر كتاب رحلات بورخارت: Unterwegs am Golf «رحلة عبر الخليج العربي»، في هذه السلسلة.

[45] ينبغي الرّجوع إلى التفاصيل التي يذكرها الرّحالة البريطاني وليَمسون (عبد الله فضل المسلماني)، انظر كتابه: «رحلات المغامر العربي»، في هذه السلسلة.

[46] يكتب زويمر العبارة: طواويس tawawis ويظنها مشتقة من عبارة: الطاس tas النّحاسي، لكن هذا غلط، فالتسميّة هي الطواويش، ومفردها: طَوّاش.

[47] أشهر لؤلؤة صيدت في الخليج عُثر عليها عام 1867 على عمق 16 قامة عند جزيرة الشيخ شعيب، وقد اشتراها أحد التجّار بثمن باهظ وبيعت في باريس بثمن 8000 جنيه استرليني، ثم اشتراها أحد مهراجات الهند وأخذها إلى بلده فجُعلت عيناً لأحد التماثيل، ولذلك سمّيت: «لؤلؤة عين التمثال».

[48] ويُعرف هذا الموسم بالغوص الكبير، ويلقّب في اللهجة المحليّة للخليج باسم: غوص العود أو ركبة الغوص، ومدّته أربعة أشهر. ويسمّى غوص آخر الموسم: غوص الرّديدة.

[49] تُسمّى هذه الأكواخ في اللهجة المحليّة للخليج باسم: البَرَستي.

[50] تسمية ساحل القراصنة The Pirate Coast التي روّج لها الأوروبيّون تسمية مغلوطة وجائرة. فلم يكن أهل الخليج قراصنة، ولم يكن السّلب والنّهب صنعتهم، بل أثارت حفيظتهم نشاطات الإنكليز، فراحوا يدافعون عن مياههم ويستهدفون مراكب الإنكليز فعدّوهم قراصنة. وخير دراسة لتفنيد هذا الادّعاء هي أطروحة الشيخ الدكتور سلطان بن محمّد القاسمي حاكم إمارة الشارقة بعنوان : «أسطورة القرصنة العربية في الخليج» (بالإنكليزية) : Al-Qasmi, S.M :.The Myth of Arab Piracy in the Gulf, London, 1986.

[51] الكلب السّلوقي (نسبة إلى بلدة باليَمَن) نوع من كلاب الصّيد يُعدّ من أسرع الحيوانات ذوات الأربع قوائم بعد الفهد الصيّاد، حيث تصل سرعته إلى 80 كم/ساعة. وهو شديد الوفاء لصاحبه ويألف الطيور الجوارح ويساعدها على طرائدها. ولا ريب أنّ هواية قنص الغزلان والظباء والحبارى والأرانب البريّة في براري أبوظبي كانت على مرّ العصور هواية أثيرة لدى الشيوخ والأعيان، ولهذا كانوا يحرصون على اقتناء خير أنواع الصقور والشواهين والكلاب السّلوقيّة والفهود لهذا الغرض.

[52] تسمية هذه الجزيرة تنطبق على حضارة قديمة عريقة جداً هي حضارة دلمون التي يتردّد ذكرها في الوثائق السّومريّة والآشوريّة والبابليّة، في الألف الثالث قبل الميلاد. قامت هذه الحضارة في جزيرة البحرين وشرقي جزيرة العرب (جزيرة تاروت في القطيف) وامتدت على طول السّاحل الشرقي للجزيرة، من الكويت عند جزيرة فيلكا حتى حدود حضارة مجان في عُمان وحضارة أم النّار في أبوظبي. وعُرفت دلمون بهذا الاسم لأنها محاطة بالماء من كل ناحية.

[53] وكان حاكم أبوظبي آنذاك الشيخ زايد بن خليفة بن شخبوط بن ذياب بن عيسى بن نهيان بن فلاح بن ياس، الذي يُعرف باسم «الشيخ زايد الكبير»، وقد حكم خلال الفترة الممتدة بين 1855-1909 م. وهو جدّ المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مؤسّس دولة الإمارات العربيّة المتحدة وباني نهضتها، رحمه الله وبارك في ذرّيته الصّالحة الطيّبة.

[54] كان الإنكليز يطلقون على المشيخات التي تؤلف دولة الإمارات العربيّة المتحدة اليوم لقباً مغلوطاً هو: ساحل الصّلح العُماني، والنسبة هنا إلى عُمان لم تكن لدواعٍ سياسية ولا إداريّة، بل هي تسمية جغرافيّة محضة، اختاروها آنذاك. وكانت هذه المشيخات مستقلّة بطبيعة الحال ولا تتبع لعُمان.

[55] يظنّ المؤلف أن الاسم في العربيّة: الجبل العالي، وهكذا ترجمه بالإنكليزية.

[56] وكان حاكم دبَيّ آنذاك الشيخ مكتوم بن حشر آل مكتوم، تولاها عام 1894 حتى وفاته رحمه الله عام 1906. وهو والد جدّ سموّ الشيخ محمّد بن راشد آل مكتوم الحاكم الحالي لإمارة دبيّ.

[57] واسمه في اللهجة المحليّة: النّوخَذة.

[58] ذكرنا بطلان هذه التسمية الجائرة The Pirate Coast في مطلع الفصل السّابق، وعلى أي حال، فبعد معاهدة الهدنة البحريّة عام 1843 وتجديدها في مايو 1853 صار يطلق على ذاك الجزء من ساحل الخليج العربي اسم: الساحل المتصالح أو ساحل الصلح البحري Trucial Coast، وهذا ما كان ينبغي لزويمر ذكره.

[59] كانت جزيرة أبو موسى تتبع الشارقة، بنما تتبع جزيرتا طنب الكبرى وطنب الصغرى رأس الخيمة، وفي عام 1898 منح حاكم الشارقة أول امتياز لاستخراج أوكسيد الحديد الأحمر من جزيرة أبو موسى لمواطنين عرب. ثم في عام 1904 ادّعت إيران بحقها في ملكيّة الجزيرة طمعاً في منح امتيازات التنقيب عن المُغر لشركة أجنبيّة، وأرسلت موظفاً بلجيكياً لرفع العلم الفارسي، وأعقب ذلك إقرار دولي واضح وصريح بملكيّة الجزر الثلاث للشارقة ورأس الخيمة، فاحتفظت بهويتها العربيّة طويلاً، حتى احتلّتها إيران بقوة السّلاح بغير حق عام 1971.

[60] يعني أوكسيد الحديد الأحمر، ويُعرف في اللهجة المحليّة باسم: المُغر.

[61] يقصد قبيلة القواسم (الجواسم باللهجة المحليّة).

[62] لم يكن أهل الخليج قراصنة، ولم يكن السّلب والنّهب صنعتهم، بل أثارت حفيظتهم نشاطات الإنكليز وأحلافهم السّياسيّة في الخليج وبحر العرب، فراحوا يدافعون عن مياههم ويستهدفون مراكب الإنكليز فعدّوهم قراصنة.

[63] ومصدر تسمية الرّيال في الخليج من البرتغاليّة والإسبانيّة: Real التي تعني: الملكي، والمقصود الجنيه الملكي. ويرد في كتاب رحلات الرحّالة الألماني هِرمان بورخارت تفصيل للعملات السّائدة في الخليج العربي بمطلع القرن العشرين.

[64] وادي حمّ أحد الفروع الكبرى لوادي ضيقة أكبر وادٍ بسلطنة عُمان.

[65] يستخدم المؤلف هنا عبارة مجازيّة طريفة: I was convinced that the camel is not only the ship, but the hardship of the desert.

[66] هو قصر الحصن في أبوظبي الذي بني عام 1793 في عهد الشيخ شخبوط بن ذياب بن عيسى آل نهيان الذي حكم بين 1793-1816 م، فصار مقراً رسمياً له ومركزاً للحكم، ومنذ ذلك الحين يؤرَّخ اتخاذ آل بوفلاح لأبوظبي عاصمة لهم. والحصن أقدم بناء تاريخي في المدينة، ويقع اليوم ضمن أسوار المجمّع الثقافي، تحت إدارة هيئة أبوظبي للثقافة والتراث.

[67] وذلك هو الضبّ، من أنواع الوَرل الذي يؤكل لحمه. ولا ريب أنّ زويمَر وزوجته لن يستسيغا تذوّقه لكونهما لا يألفان هذا النوع من الطعام.

[68] هذه القصة ترويها زوجة المؤلف إيمي بقلمها.

[69] كانت البحرين مركز الإرساليّة ومشفى مايسون الأميركي Mason Memorial اللذين أسّسهما صموئيل زويمر، وأقام يمارس عمله بين عامي 1891-1905، وعلينا ألا ننسى أن زوجته إيمي كانت ممرضة، وكان لها دور كبير في العمل بالمشفى.

[70] قلعة دارين من قرى القطيف بشرقي جزيرة العرب في المملكة العربيّة السّعودية. كانت مركز تجارة اللؤلؤ في منطقة القطيف في العهد العثماني، وتنسب قلعتها لمدير محلّة دارين بين 1303- 1324 هـ الشيخ محمّد باشا بن عبد الوهاب الفيحاني السّبيعي، أحد أشهر تجّار اللؤلؤ في الخليج وجزيرة العرب آنذاك.

[71] وليس معنى ذلك أبداً أن مجتمعاتنا العربيّة لم تكن تعنى آنذاك بتلقين أصول المبادئ الأخلاقيّة، وقد كان ذلك الدّور منوطاً بالدّرجة الأولى بالأهل، فيما اختصّ الكتّاب بتلقين مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم.

[72] البحرين هي البلد الوحيد في الخليج العربي الذي يضمّ جالية يهوديّة صغيرة، وتعود جذور هذه الطائفة إلى ما قبل البعثة النّبويّة الشريفة، إلا أن وجودهم الحالي يعود لمهاجرين يهود قدموا للبحرين خلال القرنين الماضيين من بغداد والبصرة وبوشهر. ولهم في المنامة كنيس هو الوحيد في منطقة الخليج العربي، بني عام 1930.

[73] بأسلوب مُغرض لئيم، يغمز زويمر من قناعات المسلمين وعقيدتهم.

[74] هذه القصة ترويها زوجة المؤلف إيمي بقلمها كما هو واضح.

[75] هذه القصة ترويها زوجة المؤلف إيمي بقلمها كما يبدو.

[76] الجواب واضح وبسيط: يطوون أشرعتهم ويعودون من حيث أتوا، لأن جزيرة العرب كانت منذ فجر التاريخ منارة البشريّة التي نشأت في جنوبيها الحضارات القديمة، ثم انتقلت منها موجات الشعوب العروبيّة (وليست السّاميّة) فعمرت بلاد الرّافدين والشام، ثم ابتدع أحفادها هناك الكتابة الأولى (المسماريّة السّومريّة 3500 ق.م) والكتابة المقطعيّة الأولى (فينيقيّة جبيل 1200 ق.م). وأخيراً، بزغ نور الحق في شمالها الغربي في الحجاز بالبعثة النبويّة الشريفة، وخاتم الأنبياء سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

[77] خيال المؤلف خصب، لكننا لا نحتاج إلى الرّد عليه فقد تكفلت بذلك السّنون ومجريات الأحداث منذ قيامه برحلاته التبشيريّة هذه، التي انتهت إلى فشل ذريع 100 %.